الرومان في برقة

ظلت منطقة برقة تابعة للبطالمة كما أسلفنا حتى عهد بطليموس أبيون (Apion)، الابن غير الشرعي لبطليموس السابع يورجيتس الثاني، وقد ورث ابيون منطقة برقة بناء على وصية يوجيتس الثاني وحكمها منذ سنة 116 ق.م. حتى أوصى بها لروما قبيل وفاته، دون وريث، سنة 96 ق.م. وكانت المنطقة التي ورثتها روما عن بطليموس أبيون تشمل الأراضي الواقعة بين بحر كتابتمو الكبير(Gran Catabatmo) (=خليج السلوم) في الشرق ونصب الأخوين فليني على خليج سرت الكبير في الغرب وتنتهي قرب (مقاطع الكبريت) على ذلك الخليج[25].

والمعلومات التي لدينا عن برقة بين سنة 96 ق.م. وسنة 75 ق.م. ليست كثيرة، ولكننا نعرف أن مجلس الشيوخ الروماني اكتفى في بداية الأمر بوضع يده على الأراضي الملكية في برقة بينما اعتبر المدن الإغريقية في تلك المنطقة كحليفات لروما فترك لها حرية تصريف شؤونها. ويخبرنا بلايني أن أول شحنة من نبات السلفيوم وصلت من برقة بعد وفات أبيون بثلاث سنوات أي سنة 93 ق.م. وأنها كانت عبارة عن إنتاج الحقول الملكية)Agri Regii(. ولكن لما كانت المدن الإغريقية في برقة كغيرها من المدن الإغريقية في وضع من الضعف والاضطراب لا يمكنها من حفظ أمنها واستقرارها فقد وقعت فريسة للفوضى وأعمال الشغب. وحيال هذا الوضع المضطرب اتخذت روما قراراً بضم المنطقة فعليا فعينت لها حاكما رومانياً لأول مرة سنة 75 ق.م. وكان برتبة كويستور (Quaestor)[26]، وباشر ذلك الحاكم، وكان اسمه كرنيليو لونتولو مارسلينو (Cornelio Lentulo Marcellino)، سلطاته سنة 74ق.م. وبالرغم من ذلك الإجراء الروماني فان قورينة تكبدت

25- Romanelli, Pietro, La Cirenaica Romana (96 a.c. – 642 d.c.), Centro Italiano di Studi Mediterranei, A. Airoldi – Editore, 1943 – XXI, page 27.

26- Ibid. Pag. 43. See also: Jones, A.H.M. Cities of the Estern Roman Provinces, Oxford, 1937.

خسائر اقتصادية فادحة في القرن الأول قبل الميلاد نتيجة القرصنة من ناحية وغزوات قبائل المارماريدي (Marmaridae) من ناحية أخرى. ثم نتيجة للحروب الرومانية الأهلية. ولم تبدأ تنتعش إلا منذ عهد أوغسطس. ويدل أحد نقوش الحمامات الكبرى في هذه المدينة على أنها تلقت معونات مادية في أواخر القرن الميلادي الأول.

ولا شك أنها بدأت تنتعش بعد ذلك؛ فنحن نسمع أن أحد أبنائها كان عضوا في مجلس الشيوخ الروماني في أوائل القرن الميلادي الثاني[27].

أما سبب عدول روما عن موقفها الأول من مدن برقة الإغريقية واتخاذها قرارا بضمها إلى أملاكها سنة 75 ق.م. فإن سلّوست[28] يخبرنا أن روما سلكت على ذلك النحو محتجة بان تلك المدن كانت بحاجة لحكومات اقل طموحا من حكوماتها القائمة آنذاك وبسبب نشوب حرب أهلية في قورينة وهي حرب تدل المصادر الأخرى على أنها لم تكن الحرب الأهلية الأولى والأخيرة منذ سنة 66 ق.م.[29] واختلف المؤرخون في أسباب ضم روما لبرقة فقال البعض انه تم تحت ضغط رجال الأعمال الرومان الذين كانوا في برقة. وقال آخرون بل لان روما ما أرادت أن تقفل جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط في وجه القراصنة الذين تمكن بومي من هزيمتهم وسحقهم في صيف سنة 96 ق.م.

وفي تلك السنة ذاتها وبعد أن قضى بومي على القراصنة بين برقة وكريت أقدم مجلس الشيوخ الروماني على ضم هاتين المنطقتين في ولاية واحدة باعتبار أنهما كانتا تخضعان لسلطة واحدة وهي سلطة البطالمة طيلة العهد البطلمي[30]. وقد اتسمت هذه الفترة بعدم الاستقرار ولم تفلح فكرة

27- The Jornal of Roman Studies, Vol. XLIX, 1959, Parts I & II, article under the title “Four Inscriptions from Roman Cyrenaica”, by Joyce Reynolds, pp. 95101-.
28- Sallust, Hist. II, fra. 43.
29- The Jornal of Roman Studies, Vol. LII, 1962, Parts I & II, article under the title “ Cyrenaica, Pompey and C.N. Cornelius Marcellinus”, by Joyce Reynolds, pp. 97103-.
30- رستوفتزف. م.. تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي. ترجمة زكي علي

دمج برقة وكريت في ولاية واحدة في تخليص برقة من الفوضى والإضطرابات التي كانت تعاني منها. ذلك لان عملية الدمج لم تكن تعدو توحيد الجهاز الإداري الروماني فيهما فظلت كل منهما تصرف شؤونها الداخلية كالمعتاد بينما انصرفت الإدارة الرومانية لاستنقاذ الأراضي الملكية في برقة من الذين وضعوا أيديهم عليها. والى تحصيل الضرائب المستحقة للخزينة الرومانية. وظلت برقة وكريت تكونان ولاية واحدة تابعة إداريا لمجلس الشيوخ الروماني حتى بعد توصل الإمبراطور أوغسطس إلى اتفاقيته المعروفة مع ذلك المجلس بخصوص اقتسام إدارة ولايات الإمبراطورية بينهما سنة 23 ق.م. ولكن حتى في هذا العصر الإمبراطوري نحن لا نسمع إلا القليل والقليل فقط عن الحياة في هذه الولاية. ويبدو لنا أنها أفادت كغيرها من الولايات من الاستقرار والازدهار اللذين كانا الطابع المميز للحياة في الإمبراطورية الرومانية ما بين سنة 27 ق.م. وسنة 68 م. والأمر الوحيد الذي نعرفه عن الحياة الاقتصادية في كريت وبرقة هو محاولة الأباطرة كلوديوس ونيرون وفسبسيان وضع حد للفوضى التي ضربت أطنابها في نظم امتلاك الأراضي التي كانت سائدة هناك. فقد وضع الأفراد ليديهم على مساحات واسعة من الأراضي في كل من القطرين. برقة وكريت. مع أنها من الوجهة القانونية كانت ملكا خاصا للمدن أو للأباطرة بوصفهم ورثة للبطالمة.

والواقع إن اهتمام الرومان الفعلي بمنطقة برقة لم يبدأ إلا في عهد الإمبراطور أوغسطس (27 ق.م._ 14 م.) فقد بقيت شبه مهملة بين سنتي 75-24 ق.م. تستوفي منها الضرائب ولا تبذل فيها جهود رومانية تذكر من أجل إنعاشها والنهوض بعمرانها وحضارتها. وربما كان ذلك ناجما عن الأحوال المضطربة التي واكبت المرحلة الأخيرة من العهد الجمهوري في روما. ومع بدء عهد أوغسطس انطلق الرومان بنشاطهم المعهود على إنعاش منطقة برقة فضمنوا لها مواصلات آمنة. ووسعوا رقعة الأرض المزروعة مما أدى إلى تحرك اقتصادي زراعي كان السبب الرئيسي في نهوض المنطقة وتقدمها. ولا تزال آثار برك الماء الرومانية. وأبنية المزارع والحقول التي تظهر هنا وهناك في

وحمد سليم سالم. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ص 378.

مختلف أنحاء برقة تقوم أدلة واضحة على النشـاط الروماني العمراني في برقة في هذه الحقبة التاريخية وهو نشـاط نلمسـه أيضا فيما نلاحظه من إصلاحات وتحسـينات وإضافات أدخلت في هذه الفترة على المرافق الإغريقية التـي كانت قائمة آنذاك في مختلـف المدن الإغريقية في برقة. ومن الواضح أن الرومان، الذين اعتبروا أنفسـهم ورثة للإغريق وحماة للحضارة الإغريقية، كانـوا حريصين على أن تسـتمر برقة في نموها الحضـاري نموا طبيعيا يتجلى لنا في اسـتمرار اللغة الإغريقية والطابع الإغريقـي للمنطقة. فلقد ظلت اللغـة الإغريقية تحتـل المرتبة الأولى بينما جاءت اللغـة اللاتينية في المرتبة الثانية. يدل على ذلك ما تم اكتشـافه من نقوش سـجل الموضوع الواحد من موضوعاتها باللغة الإغريقية أولا ثم باللغة اللاتينية ثانيا.

وعندما اعتلى الإمبراطـور ديوقلتيان (285-305 م.) عرش الإمبراطورية أعـاد تنظيـم الولايات فجعـل طرابلس ولايـة قائمة بذاتها وكانت تشـمل الأراضـي الواقعة بين القوس الرخامي التذكاري وبين شـط الجريد في تونس، وفصـل برقـة عن كريت وكـون منهـا ولايتين جديدتـين: ولاية ليبيـا العليا (Upper Libya) وصارت طلميثة عاصمة لها[31] بدلا من سـيرين. وكانت تتألف من منطقة البنطابولس ومعها القسـم الشـمالي من هضبة برقة. وولايـة ليبيا الدنيـا (Lower Libya) أو الجافة وكانت تشـمل السـواحل القاحلة بين درنة والإسـكندرية. وقد ظلت هاتان الولايتان كذلك حتى وحدتا

31- Goodchild, R.G., The decline of Cyrene and rise of Ptolemais, Two new Inscriptions-in Quaderni Di Archeologia Della Libya, Roma, 1961. See also:
The Jornal of Roman Studies, Vol. XLV, 1953, Parts I & II, pp 106 – 115, article under the title "Diocletian's Price-Edict" at Ptolemais (Cyrenaica), by Giacomo Caputo and Richard Goodchild, wherein they say:
نمت طلميثة في العصر الهلينسـتي إلى مركز تجاري مستقل ذاتياً. وفي أيام ديوقلتيان صارت عاصمة لولاية ليبيا العليا ومركزا دينيا لأبرشـيتها أي قسـمها الإداري؛ شـغله سينيسيون فيمـا بعـد. وقد نقلت العاصمة إليها مـن قورينة في أيام ديوقلتيان؛ ونحـن وإن كنا لا نعرف زمـن عملية النقل هـذه على وجه التحقيق إلا أننا نعتقد أنها تمت قبل تولية سينيسـيوس سنة 410 م.

في دوقية واحدة سـنة 381 م. وعندما قسمت الإمبراطورية الرومانية سنة 395 م. إلى قسـمين: غربـي وعاصمته روما، وشـرقي وعاصمته بيزنطة أو القسـطنطينية، تبعث منطقة برقـة للإمبراطوريـة البيزنطية بحكم أن برقـة كانت ترتبط بالحوض الشـرقي من البحر الأبيض المتوسـط منذ قدوم الإغريق إليها.

الحدود الرومانية في برقة:

بالرغـم من أن برقة كانـت في بداية عهدها بالرومـان تابعة إداريا لمجلس الشـيوخ الروماني إلا أنها كانت معرضة للكثير من غـارت القبائل الليبية. وهنالـك إثباتات كافية تدل على أن برقة كان لهـا حرس حدود روماني ابتداء مـن القـرن الأول قبل الميلاد. ولكـن يبـدو أن ذلك الحـرس كان قليلا بحيث لم تكن له القوة الكافية لإيقاف الثورة اليهودية عندما بدأت سـنة 115 م. مما حمل الرومان على إرسـال مزيد من القـوات لتعزيزه وتمكينه من كبح الثورة اليهودية. ولقد أوضحت الأزمة التي اسـتفحلت في منتصف القرن الميلادي الثالث مدى الخطر الذي كانت منطقة برقة معرضة له عندما اغتنمت قبائل مارماريـكا فرصة الفوضى التي كانت قد اسـتفحلت فـي الإمبراطوري في أعقاب زوال الأسرة الأفريقية السويرية وأغارت على منطقة برقة واكتسحت قورينة[32].

ومنذ سـنة 390 م. فصاعدا لم تسترح منطقة برقة من غزوات القبائل البربريـة إلا قليلا؛ وكانـت اخطر تلك الغارات غارات الاسـتوريين في المناطق الداخليـة المجـاورة لخليج سـرت الكبير. وقـد ظهر الاسـتوريون لأول مرة في التاريـخ الروماني عندما قاموا بغزو منطقة طرابلس سـنة 363 – 365 م. ومع حلول سـنة 399 م. كانت غاراتهم تشـمل جانبي خليج سرت الغربي (شرق طرابلس) والشـرقي (غرب برقة). ولعلنا نستطيع أن نتصور ما وصلت إليـه حالـة البنطابولس من هزال عندما نتذكر أن أحد أبناء بنغازي واسـمه

32- أصيبت قورينة سنة 262 م. بزلزال مدمر ولكنها عمرت بسرعة سنة 267 م. وسميت Claudiopolis باسـم الإمبراطـور كلوديس الثاني ولكن هذا الاسـم لم يـدم طويلا. وقد أصيبت قورينة بزلزال آخر سنة 365 م.

اندرونيكوس (Andronicus). وكان صياد سمك، صار حاكما للبنطابولس سنة 410 م. ولعل تدني مستوى الطبقة الاجتماعية التي جاء من صفوفها هو الذي حمل سينيسيوس، أسقف طلميثة، على مناصبته العداء. وفي سنة 450 م، أي بعد حوالي نصف قرن من الغارات الاستورية الأولى، تجددت غاراتهم مما حمل الجنرال الروماني أرماتيوس (Armatius) على القيام بحملة ضدهم. أما في مطلع القرن الميلادي السادس فإن التهديد الرئيسي لهضبة برقة المعزولة جاء هذه المرة من قبائل المازيكي (Mazices) الذين استقروا في الواحات الواقعة إلى الغرب من وادي النيل وأغاروا على منطقة برقة مرة واحدة على الأقل حوالي سنة 513 م.

وكانت الطريق إلى برقة من خليج سرت محروسة منذ القدم، وكان أقصى حصن دفاع عنها من الغرب هو حصن بير أم القرنية قرب القوس الرخامي وكان يشغل مساحة 35 ×32 مترا مربعا، ولم يكن حوله خندق. والمعروف عنه أنه كان معمورا في القرن الميلادي الأول ولكنه أهمل وهجر قبل عصر جستنيان عندما صارت الحدود الغربية للبنطابولس تقوم قريبا من المدينة المسوّرة (بوقرادة) قرب مرسى البريقة، حيث وجدت مجموعة كبيرة من القلاع الصغيرة ذات الخنادق التي كان قصر العطيلات بمثابة قلب لها. وتجدر الإشارة هنا إلى مقاتلين سوريين كانوا يتولون حراسة أجدابية (Corniculanum) في القرن الميلادي الأول.

ولقد وجدت آثار قلاع ثلاث كانت تشكل خط دفاع غربي عن برقة من ناحية سرت ممتدا من الغرب إلى الشرق ومبتدئا بالقرب من الشاطئ ومتجها حتى سهل الاستبس في الداخل. وتلك القلاع الثلاث المهمة هي: زاوية طيلمون (=تل آمون) وقلعة زاوية الشليظمة وقلعة زاوية مسوس. وكان هذا الخط يشكل أقصى حد لمنطقة سرت نحو الداخل. وجدير بالملاحظة أن مراكز الدفاع في عهد الاحتلال الإيطالي الحديث كانت تقوم في تلك المواقع ذاتها[33].

33- The Jornal of Roman Studies, Society for promotion of Roman Studies, London, Vol. XLIII, 1953, The Roman and Byzanite Limes, R.G. Goodchild, pp. 6576-.

ونحن وإن كنا لا نعرف مواقع خط الدفاع الروماني في برقة بأسرها فنحن لا نستطيع إلا أن نجزم بوجود مثل ذلك الخط مما نراه من بقايا الحصون، فهنالك آثار مزارع محصنة كانت تحمي الجهتين الغربية والجنوبية لسهل المرج المحيط بمدينة برقة، كما توجد آثار بعضها على جانبي الوادي الممتد من الأبيار إلى المرج وهنالك مجموعة قصور أو حصون مقامة في وادي الكوف للحيلولة دون التسلل إليه من الجنوب وشطر منطقة برقة إلى شطرين. أما في شرق برقة فلابد أن التحصينات كانت قليلة وإن وجدت آثار منها تدل على خط دفاع كان يهدف لحماية الطريق الذي كان يؤدي من درنة إلى الداخل. كما نعلم أن الإمبراطور جستنيان حصّن طبرق مما قد يشير إلى أنها إنما كانت محصنة قبل عهده فجاء هو ليرممها ويجدد تحصيناتها في إطار سياسة الترميم التي سار عليها بالنسبة لمدن إمبراطوريته. ولعل وجود آثار كنائس محصنة يشير إلى تلك الكنائس، وخاصة ما كان منها في الدواخل، إنما حصّنت نفسها لتقوم بالدفاع عن ذاتها وعن أتباعها. بعد أن ضعف خط الدفاع الروماني في أواخر العهد الروماني، وهو نفس ما فعلته طلميثة بزعامة أسقفها سينيسيوس عندما قامت بتحصين كنيستها ومرافقها الحيوية دفاعا عن ذاتها.

ولا شك أن الرومان أوجدوا شبكة مناسبة من الطرق في برقة على غرار ما فعلوا في طرابلس وغيرها من ولاياتهم الأخرى. ولقد وجدت حجارة معالم الطرق الرومانية في عشرة مواقع في برقة حتى الآن، ويبدو انه كانت في البنطابولس ثلاث طرق رئيسية تلتقي جميعها في قورينة. ولابد أن المتطلبات العسكرية فيما اقتضت إيجاد شبكة أخرى من الطرق تربط الساحل بالدواخل كما كانت الحال في منطقة طرابلس[34].

اليهود في برقة:

كان إلى جانب العنصر الليبي والإغريقي والروماني في برقة عنصر رابع

34- Papers of the British School at Rome, Vol. XVIII (New series Vol. V) 1950, The British School at Rome, 1 Lowther Gardens, Exhibition Road, London, England, Goodchild, R.G., Milestones in Cyrenaica, pp 83 – 91.

هام هو العنصر اليهودي وقد سبقت الإشارة إليه في الحديث عن عناصر سكان منطقة طرابلس. وقبل أن نتحدث عن أوضاع يهود برقة وسلوكهم يجدر بنا أن نتريث هنيهة نلقي خلالها نظرة على تاريخ اليهود وكيف ومتى جاءوا إلى برقة.

إن المتعارف عليه بشكل عام أن اليهود، الذين ينتمون إلى الجنس السامي الذي ننتمي إليه بوصفنا عربا، وجدوا أول ما وجدوا في أور بجنوب العراق ولأسباب مختلفة هاجر بهم إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد من أور إلى مصر ماراً بأرض كنعان (=فلسطين) ولكنهم لم يمكثوا في مصر غير قليل ثم عادوا إلى فلسطين واستقروا بها كجالية صغيرة. وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد هاجر بهم يوسف بن يعقوب من فلسطين إلى مصر حيث استعبدهم الفراعنة طيلة أربعة قرون، هاجر بهم بعهدها أي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد موسى بن عمران إلى فلسطين فدخلوها بعد أربعين سنة من الضياع في صحراء التيه بشبه جزيرة سناء. وقد تمكن اليهود من الاستيلاء على مناطق محدودة من فلسطين أقاموا فيها في ظل نظام قبلي يتمثل في الأثني عشر سبطاً أو قبيلة التي انقسمت إليها قبائلهم. وكان يتولى سلطة الحكم عليهم قضاة منهم بين القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد. وعند هذا الحد من تاريخهم نجدهم ينجحون في إقامة مملكة لهم يعتبر أول ملوكهم عليها الملك شاؤول الذي لم يكن في الواقع سوى ملك رمزي. أما أول ملك حقيقي لهم فهو الملك داود الذي عمل على توسيع حدود مملكته بالقوة فحارب جالوت، ملك البربر، وانتصر عليه وشرد البربر واتخذ القدس عاصمة لمملكته التي أصبحت تشمل ضمن حدودها أرض اليبوسيين والكنعانيين والفلسطينيين من نهر الفرات إلى خليج العقبة وساحل البحر الأبيض المتوسط. والجدير الملاحظة أن اليهود حتى أيام الملك داود لم يوفقوا إلى إقامة حكومة مركزية قوية فظلت مملكتهم وكأنها مملكتان ترتبط الواحدة منهما بالأخرى ارتباطا هزيلا. هاتان المملكتان كانتا إسرائيل في الشمال ويهودا في الجنوب. وكان ملك يهودا لا يستطيع أن يحكم في إسرائيل إلا بموافقة الإسرائيليين ولكن الملك داود

نفسه منح تلك الموافقة مقدما قبل تتويجه. وعندما اعتلى ابنه سليمان عرش يهودا فجأة في أعقاب وفاة أبيه لم يعترف به الإسرائيليون إلا بعد أن ذهب إلى عاصمتهم شخيم (=نابلس) وتوج ثانية فيها. وبعد وفاة سليمان سنة 931 ق.م. خلفه ابنه رحبعام (Rehoboam) على عرش يهودا فقط ولم تعترف به إسرائيل مما حمله على شن حرب عليها ولكنها تمكنت من هزيمته بقيادة قائدها يربعام (Ieroboam) الذي استقل بها وبأسباطها العشرة بينما ظلت يهودا مملكة ثانية يسكنها السبطان الباقيان. وظلت هاتان المملكتان منقسمتين حتى القرن الثامن قبل الميلاد عندما استولت الدولة الآشورية الناشئة في العراق على مملكة إسرائيل. ولم تلبث مملكة يهودا أن لاقت مصيرا مشابها عندما اكتسحها نبوخذ نصّر في القرن السادس قبل الميلاد وسبى اليهود إلى بابل حيث ظلوا حتى أيام الفرس عندما سمح كورش لمن أراد منهم بالعودة إلى القدس فعاد بعضهم إليها وجددوا بناء الهيكل في القرن الخامس قبل الميلاد.

وبعد وفاة الإسكندر الكبير سنة 323 ق.م. قسمت إمبراطوريته بين خلفائه فكانت بلاد الشام من نصيب السلوقيين وكانت مصر وبرقة من نصيب البطالمة. ولم يلبث الصراع أن نشب بين البطالمة والسلوقيين من أجل الاستيلاء على فلسطين، ذلك الممر التاريخي الذي يربط آسيا بإفريقيا، وتمكن بطليموس الأول من الاستيلاء على يهودا سنة 301 ق.م. وظلت بعده تحت حكم البطالمة حتى سنة 200 ق.م. ولا ريب أن البطالمة جلبوا معهم لمصر أعداداً من اليهود الذين أسروا أثناء الحروب بين البطالمة والسلوقيين، كما أن البطالمة كانوا يحاولون توجيه هجرة اليهود إلى ممتلكاتهم، تلك الهجرة التي نشأت عن عدم وأد اليهود لا أي من أطفالهم مما أدى إلى تزايد عددهم وحملهم بالتالي على الهجرة كحل لمشكلة تزايد عدد السكان. وترتب على هذا الوضع بمجموعه قيام جاليات يهودية في مصر وفي برقة التابعة لها. ففي مصر كان لليهود مستوطنات منذ أزمان طويلة. ومنذ القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد عاش منهم بجزيرة إلفنتين (فيلة) في أعلى النيل جماعة أصلهم في البداية من المرتزقة وقد اسكنهم فيها أحد

الملوك، وكان لهم هناك معبد لالههم يهوه. وسكن يهود آخرون مصر في عهد أرميا، النبي العبراني الذي ناصر نبوخذ نصّر ثم أنسحب إلى مصر بعد سقوط أورشليم (585 ق.م.). كما أقامت جالية قديمة منهم في منف، ثم احضر بطليموس الأول عددا منهم إلى الإسكندرية فيما بعد. واستمرت هجرة اليهود إلى مصر طيلة القرن الثالث قبل الميلاد وكانوا إجمالا ينزلون بالإسكندرية، وأحيانا بريف البلاد حيث كان لهم في عهد بطليموس الثالث ثلاث كنس أو بيع.

وعندما نشبت الحرب الأهلية بين كليوبترة الثالثة وابنها بطليموس لاثيروس انحاز اليهود إلى جانب الأم فكان ذلك هو بداية حالة التوتر بالإسكندرية بين اليهود والإغريق لان الأخيرين كانوا يناصرون الابن. وكان يهود الإسكندرية في القرن الأول قبل الميلاد يشكلون اكبر جالية لهم خارج يهودا، وقدر عددهم في مصر بعد الحقبة المسيحية بمليون نسمة؛ وكانوا يملأون اثنين من أحياء الإسكندرية الخمسة الموجودة داخل سور المدينة. ولقد كان وجود الجاليات اليهودية أمرا مشهورا بوضوح في الإسكندرية وفي مدينة برنيقة بإقليم برقة. وكانت جالية برنيقة سنة 13 ق.م. تحت حكم مجلس من تسعة من الاراخنة (Archonc) أي الحكام[35].

وفي مطلع القرن الثاني قبل الميلاد تمكن أنطيوخس الثالث (الكبير) ملك السلوقيين من انتزاع فلسطين من أيدي البطالمة وضمها لمملكته. وكان أنطيوخس هذا متسامحا مع اليهود، بل انه أعطاهم في الوقع مزيدا من الحرية في تصريف شؤونهم الذاتية. ولكن انتزاع فلسطين من أيدي البطالمة لم يضع حدا للصراع بينهم وبين السلوقيين فقد مكان أنطيوخس الثالث يطمح إلى الاستيلاء على مصر وتوحيد إمبراطورية الإسكندر من جديد تحت رايته. ولكن القوة الرومانية الناشئة كانت قد بدأت تمد حمايتها للبطالمة ضد السلوقيين في نطاق لعبتها الجديدة في المحافظة على توازن القوى مما اقنع أنطيوخس الثالث بأنه لن يتمكن من هزيمة البطالمة

35- تارن، سير وليم وود، الحضارة الهلينستية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966، ص 223-253.

وحماتهم الرومان إلا إذا وحد الجبهة الداخلية في بلاده. ومن أجل هذه الغاية بدأ بهلنّة مملكته. إلا أن اليهود في فلسطين رفضوا برنامج الهلنّة المقترح واحتجوا لدى انطيوخس الثالث بأنهم قد اثبتوا إخلاصهم له بدفع الضرائب بحمل السلاح والانخراط في سلك قواته المقاتلة؛ ولذلك فإنهم لم يكونوا بحاجة لإثبات إخلاصهم عن طريق إقامة التماثيل له في معابدهم. وقبل انطيوخس الثالث وجهة نظرهم هذه وغض النظر عن هلنتهم، ولكن ابنه الثاني انطيوخس ابيفينز (Epiphanes) الذي ورث العرش السلوقي سنة 176 ق.م. بعد أن قتل أخاه لم يوافق على استثناء اليهود من برنامج الهلّنة ليس لأنه كان متحيزا ضدهم ولكن من حيث المبدأ؛ فما دام اليهود مواطنين في مملكته فان عليهم أن يخضعوا لقوانين السلطة كغيرهم من المواطنين. ولكن اليهود أصروا على التمسك بموقفهم في رفض برنامج الهلّنة.

وكان التقليد المتوارث هو أن يعين السلوقيون حكام الولايات المختلفة تعيينا مباشرا، أما بالنسبة لليهود فان السلوقيين كانوا يكتفون بتعيين كاهن أعظم يرشحه لهم اليهود أنفسهم. وفي هذه المرحلة رأت الأرستقراطية اليهودية أن من مصلحتها أن تساد انطيوخس ابيفينز على هلّنة فلسطين وتمكنت بالرشوة وبالتغرير من حمله على تعيين كاهن يهودي اسمه جيسون (Jason) وفي منصب الكاهن الأعظم بفلسطين. وكان جيسون هذا أحد زعماء الهلّنة البارزين في فلسطين فتمكن خلال اثني عشر شهراً من تحقيق ما عجزت مائة وخمس وعشرون سنة من الحكم البطلمي والسلوقي عن تحقيقه ألا وهو فتح أبواب هيكل اليهود في القدس أما الطقوس الوثنية حيث أدخلت إليه التماثيل الإغريقية، وصار الكهان اليهود يرتدون الزي الإغريقي ويمارسون الطقوس الإغريقية، كما صار اليهود يمارسون الألعاب الإغريقية في ساحة الهيكل وهم عراة، وصارت القدس ترسل وفودا تمثلها في الاحتفالات الوثنية. ومما آثار حفيظة اليهود على اختلاف طبقاتهم فراحوا يتذمرون من دعاة الهلّنة خاصة اليهود منهم. وفي غمار إحدى حملات أنطيوخس ابيفينز على مصر راجت بين اليهود في فلسطين إشاعة بأنه قتل في إحدى المعارك، فاغتنموا الفرصة، وانقضوا على كهانهم، الذين

كان السلوقيون قد عينوهم. فألفوا القبض عليهم في الهيكل وألقوا بهم إلـى حتفهم من علو مائة قـدم. ثم حملوا التماثيـل الوثنية الموضوعة في الهيـكل وألحقوها بالكهان. وراحوا يتتبعون دعاة الهلّنة ويذبحونهم. وتمكن حزب الهسدانيين (Hasidns). الذي انضوى تحت لوائه كل اليهود المحافظين المناهضين للهلّنة من الاستيلاء على السلطة في فلسطين.

ولكن إشـاعة مقتل أنطيوخس ابيفينز كانت كاذبة. فالذي حدث هو أن الرومـان انذروه بالخروج مـن مصر وكانت قد وصلت إلى مسـامعه أنباء ثورة اليهـود وراءه في فلسـطين فقرر العودة. ودخل بقواتـه القدس فأدب اليهود الثائرين في اشـتباك قتل منهم فيه عشـرة آلاف. وإثر ذلك أعيدت تشكيلة الكهّـان الموالين لحركة الهلّنة كما أعيـدت التماثيل الإغريقية إلى الهيكل. ودعـا إبيفينـز كثيرا من الوثنين لسـكنى القـدس لتخفيف مـن صبغتها اليهودية. وألغى طقس اليهود في السـبت وحرّم عليهم تطهير أبنائهم مما زاد فـي نقمتهم فانضمت أعداد جديدة منهم. حتى من الذين كانوا يتخذون موقفـا معتـدلاً من الهلّنـة. إلى حزب الهسـيدانيين. وأدى ذلـك إلى تمهيد الطريق أمام ثورة جديدة. وجاءت تلك الثورة بسرعة سنة 168 ق.م. إثر إقدام أحد الموظفين السـلوقيين في قرية خارج القدس علـى محاولة إرغام كاهن يهـودي على تقديم قربان لأحد الآلهة الإغريقية ففضل الكاهن أن يقتل ذلك الموظف على أن يرتكب تلك الخطيئة. كان ذلك الكاهن متاثياس الهسموني (Mattathias the Hasmonean). الذي أمر إيبفينز بعقابه فهب اليهود جميعا للدفاع عنه فأصبح هو وأبناؤه الخمسة يقودون الثورة الجديدة وعرفوا بالمكابيين (Maccabees) نسـبة للتسـمية العبرية التي تعني (مطرقة) باعتبار أنهم كانوا يضربون القوات السـلوقية مطرقة اثر الأخرى في الحروب المتتالية. وفي سنة 166 ق.م. تمكن اليهود من هزيمة جيش كان يقوده إيبفينز بنفسـه ولكن الحرب اسـتمرت لمدة خمسـة وعشرين سـنة قتل فيها أبناء متاثياس الواحد تلو الأخر باستثناء سيمون الذي ظل يتزعم الثورة حتى بعد مـوت إيبفينز. وعرض خلف إيبفينز الاسـتقلال الذاتي على اليهود ولكنهم رفضوا العرض وأصروا على الاسـتقلال الكامل حتى رضخ السلوقيين فوقع

سـيمون معهم اتفاقية الاسـتقلال التي بعثت مملكة يهودا من جديد سنة 143 ق.م. وأصبح سـيمون الكاهـن الأعظم للقدس وحاكم يهودا. وهو وإن كان لـم يتوج رسـميا ملكا عليها إلا انه كان يعتبر أول ملوك هذه الأسـرة. ورأى سـيمون من وجهة نظره أن البطالمة أو السلوقيين سيهاجمون مملكته في يوم ما فوقع اتفاقية دفاع مشترك مع روما التي كان يتوقع سطوع نجمها كقوة كبرى. فحق عليه بذلك قول الشاعر العربي:

ومن تخذ الضرغام بازاً لصيده تصيّده الضرغام فيما تصيدا

وقول الشاعر الإنجليزي:

There was a young Lady of Niger
Who smiled as he rode on a tiger;
They came back from the ride
With the Lady inside,
And the smile on the face of the tiger.

ذلـك أن الابتسـامة بقيـت على ثغر اليهـود طيلة ثمانيين سـنة كانوا يمتطـون النمـر الرومانـي خلالها. ولكنها صـارت على وجه ذلـك النمر بعد أن صـاروا هم في جوفه. فقد اسـتعرت نار الحرب بين أبناء الأسـرة اليهودية الحاكمة وكانت حربا قاسية دامية لم تنته إلا بعد تدخل بومي سنة 63 ق.م. اثر فتحه لسوريا وألغى المملكة المكابية وحولها إلى ولاية رومانية.

وكان الرومـان يعينون حكاما للولاية اليهودية اشـتهر من بينهم هيرود اليهـودي الذي نصب نفسـه ملكا عليها بمسـاعدة الرومـان وحكمها مدة سـت وأربعين سـنة. وكان الرومان يخوضون حربا مضنية وغير حاسمة ضد البارثيين (الفرس) فـي الشـرق. ولذلك فإنهم كانوا دائما يخشون من اقتحام البارثيـين للحـدود الرومانية فـي يهودا فبالغـوا في حراسـتها وإخضاعها اعتقـادا منهم أنهم فـي تلك الحالة يسـتطيعون أن يسـتوعبوا أي هجوم يشـنه البارثيين. وأثارت تلك المعاملة اليهود كمـا أثارتهم الضرائب الكثيرة

التي كان الرومان يجبونها منهم فأعلنوا الثورة سنة 66 م. وبادروا بالقضاء على الحرس الروماني خارج القدس ثم انتشر لهيب ثورتهم حتى عم أرجاء فلسطين. وكان يوسف بن متاثياس (Joseph ben Mattathias)[36] يقود قوات الجليل اليهودية ضد الرومان. واستمرت الحرب بقيادة القائد الروماني فسبسيان الذي لم يلبث ان اعتلى عرش الإمبراطورية فكلف أبنه تيطس بمواصلة الحرب. واستطاع هذا الاخير أن يحتل القدس سنة 70 م. فانتقم من اليهود شر انتقام. وقد ذكر المؤرخ الروماني تاسيتوس (Tacitus)، الذي قال عن الرومان أنفسهم إنهم يخلقون الخراب ويسمون عملهم ذاك سلماً. إن تيطس قتل من اليهود في تلك الحرب ستمائة ألف نسمة. وفي عهد الإمبراطور تراجان ثار اليهود ثورتهم الثانية سنة 113 م. في كل من مصر وأنطاكية وقورينة وقبرص ومسوبوتاميا بالعراق مغتنمين فرصة انشغال تراجان في غزوة لبارثيا. ولما علم تراجان بالثورة قطع غزوته واندار لليهود فحاربهم طيلة ثلاث سنوات أدعنوا له بعدها.

وفي عهد الإمبراطور هدريان ثار اليهود ثورتهم الثالثة على الرومان سنة 132م. بزعامة باركشبة. فاستدعى هجريان يوليس سيويرس وجيشه من بريطانيا وأرسله لسحق الثورة اليهودية في فلسطين فدخلها بجيش يبلغ عدده خمسة وثلاثين ألفاً ولكنه لم يتمكن من إخضاع الثورة إلا بعد مضي ثلاث سنوات سنة 135 م. من الحرب القاسية المدمرة فأعدم الرومان باركشبه ومساعده الربي أكيبا. وبانتهاء هذه الثورة انتهت المرحلة الرومانية من تاريخ اليهود فقد قتلت أعداد كبيرة منهم بينما هرب من تمكن منهم من الهرب وتفرقوا في أرجاء المعمورة. وكان من الطبيعي أن يتوجهوا في المكانة الأولى إلى بارثيا حيث رحب بهم البارثيون أعداء الرومان. أما من ظلوا

36- يسميه الكتاب الرومان يوسيبيوس "Eusebius" . وقد استسلم للرومان فيما بعد واستأذنهم في مرافقة جيشهم المحاصر للقدس ليتسنى له تأريخ تلك الحرب عن كثب فأذنوا له ومنحوه حق المواطنة الرومانية مما جعله يغير اسمه إلى فلافيوس جوسيفوس "Flavius Josephus" . ومنذ ذلك الحين صار اليهود يتهمونه بالخيانة. ويتعبر كتاباه: تاريخ الحرب اليهودية وآثار اليهود أفضل مرجعين موجودين، وهما يتناولان تاريخ اليهود بين سنة 100 ق.م. وسنة 100 م. أما يوسف نفسه فقد عاش من سنة 38 إلى سنة 100 م.

منهم في فلسطين فقد بيعوا عبيدا في اسواق الرقيق[37].

إن الحرب اليهودية الثالثة وضعت مستقبل اليود السياسي والاقتصادي والاجتماعي على حافة الهاوية؛ فكان معظمهم دون جنسية في القرن الميلادي الثاني وكانوا منتشرين في عدة أقطار من القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا ما بين الهند شرقا والمحيط الأطلسي غربا. وكان المنطق والتاريخ يقضيان بان يفقد اليهود هويتهم كجنس ويختفوا عن مسرح الوجود ولكنهم تمكنوا من إيجاد صيغة جديدة وفرت لهم أسباب البقاء وهي صيغة (الجالية اليهودية) التي اشتهرت باسم (Diaspora Judaism). والدياسبورا كلمة إغريقية تعني التشتت وهي حتى اليوم تعني الجاليات اليهودية خارج إسرائيل[38].

أما كيف ومتي نشأت تلك الجاليات التي تتميز بطريقتها الخاصة في الحياة فان بعض المؤرخين يردون ذلك إلى تحطيم مملكة يهودا لأول مرة والسبي والبابلي الذي تلا تحطيمها في القرن السادس قبل الميلاد.

وإذا صح ذلك فان كلمة دياسبورا تصبح مرادفة لكلمة (المنفى) فكأنما نفي اليهود إلى بابل ليعيشوا هناك في المنفى. والواقع أن الدياسبورا الحقيقية إنما بدأت بالنسبة لليهود بعد فتح الفرس لبابل وسماح كورش الفارسي لمن أراد منهم بالعودة إلى القدس. وآنذاك عاد منهم والي 25% فقط بينما آثر الباقون المعيشة في المنفى. أما وجودهم في بابل قبل كورش كان إجباريا وكان يعنى المعيشة في المنفى، أما وجودهم فيها بعد أن سمح

37- انظر أيضاً: توينبي، آرنولد، تاريخ الحضارة الهلينستية، ترجمة رمزي جرجس وضقر خفاجة، سلسلة الألف كتاب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963، ص 242 - حيث يقول: «عندما أصر اليهود على الدخول في عراك مع الدولة العالمية الهلينية، ضاربين عرض الحائط بتحذيرات الملك هيرودوس، ورفعوا السلاح في وجهها بالجرأة ذاتها التي حملوا بها على الدولة السلوقية المتداعية، لم يلبثوا أن جلبوا على أنفسهم تلك الكوارث الماحقة المروعة التي وقعت فيما بين 66 – 70 م. و 132 – 135 م، فقد أبيد يهود فلسطين عن بكرة أبيهم، فيما عدا طائفتين تختلفا عنهم، هما مدرسة الحاخام يوحنا بن زكاي "Johanan ben Zakkai" والكنيسة المسيحية وهما الطائفتان اللتان نبذتا استخدام القوة كأداة لتنفيذ خططهما الدينية».

38- Dimont, Max 1., Jews God, and History, W.H. Allen, London, 1964, pp 94 – 121.

لهم كورش بالعودة فقد أصبح اختياريا أي (دياسبورا). وهنالك فرق آخر بين المنفى والدياسبورا ذلك أن الشعب المنفي لا ينتج حضارة في العادة بل يذوب في المجتمع الجديد أو يرتد إلى حياة البدو الرحل. أما اليهود فقد ظلوا يحتفظون بيهوديتهم وفي الوقت ذاته يسهمون في حضارة المجتمع الذي تعيش جاليتهم فيه دون أن تنصهر أو تفقد هويتها. ولم يتحقق هذا التماسك لليهود صدفة أو تلقائيا بل جاء نتيجة تطبيق مبادئ وضعها اليهود لأنفسهم؛ فقد قرروا فيما بينهم أن أي يهودي يباع رقيقا لابد من أن يقوم اليهود في اقرب جالية على مكان وجوده بفديته وتحريره خلال مدة أقصاها سبع سنوات. ولكي يحفظوا لغتهم من الضياع والاندثار وضعوا كتب القواعد الخاصة بها. وحتى يحفظوا دينهم من وحدوا طقوس العبادة في كل كُنُسهم وأقاموا تنظيما دينيا اجتماعيا يحتم عليهم ما يلي: أينما وجد عشرة ذكور يهود فوق سن الثالثة عشرة وعلى مسافة تسمح لهم بالاتصال ببعضهم البعض فلهم الصلاحية في إقامة طائفة دينية أسموها بالعبرية (مِنيان) (Minyan). وإذا اجتمع مائة وعشرون منهم فلهم صلاحية إقامة طائفة اجتماعية لها محكمتها الشرعية الخاصة بها. وكان على كل طائفة من هذا النوع أن تلتزم بمبادئ أخرى أهمها:

1- أن تفرض على أفرادها ضرائب غير الضرائب التي يدفعونها للدولة التي يعيشون على أرضها وذلك لكي يبقى اليهودي في غنى عن أن يستعين ماليا بحكومة وثنية أو مسيحية. وكانوا ينفقون حصيلة تلك الضرائب فيما بينهم على التعليم وفي أوجه الخير.

2- إيجاد نظام تعليمي يكون مجانيا لأيتامهم والمحتاجين منهم؛ وكان إجباريا للأولاد ومسموحا به للبنات.

3- لا يجوز لليهودي أن يطلب الإحسان من أية دولة وإنما يطلبه من جاليته فقط. ولكي يضمنوا عدم تناقص أعدادهم فرضوا عقوبات صارمة على وأد الأطفال والإجهاض والرهبنة وحرَّموا على اليهود التزاوج مع غيرهم.

ولكي يضمنوا لأنفسهم حكما ذاتيا ويحفظوا حقوقهم ويحموا أنفسهم من الاتهام بالخيانة وضعوا القوانين الأربعة التالية التي تعتبر فريدة من نوعها:

1- ليس على أي يهودي أن يلتزم بتطبيق أي قانون يهودي إذا كان تطبيقه فوق طاقة اليهودي المتدين. وفي تلك الحالة يجب أن يعاد النظر في تفسير ذلك القانون أو تعديله بحيث يساير الجيل الجديد.

2- على اليهود أن يعترفوا بصحة الوثائق غير اليهودية في محاكمهم وفي سواها. وان يعتبروا أي قسم يعقد في أي محكمة وبأية لغة قسما صحيحا.

3- على اليهود أن يطيعوا قوانين البلد الذي يعيشون فه مادامت لا تمنعهم من ممارسة دينهم أو تحملهم على ممارسة طقوس دينية أخرى أو تدفعهم إلى القتل.

4- على اليهود أن يحاربوا دفاعا عن البلد الذي يعيشون فيه.

وإذا حاولنا أن نتتبع تشتت وقيام الجاليات اليهودية بإيجاز فانّا نخرج بالصورة التالية:

أ - نشأت أول جالية يهودية خارج فلسطين في بابل بالعراق من الأسرى الذين ساهم نبوخذنصّر بعد أن اجتاح القدس وهدم هيكل سليمان في القرن السادس قبل الميلاد.

ب - وفي عصر البطالمة في مصر أي ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد بدأت تتكون هناك جالية يهودية معظم أفرادهم من الأسرى اليهود الذين كان البطالمة يعودون بهم من فلسطين التي كانت ميدان صراع البطالمة والسلوقيين. ولما كانت برقة تابعة للبطالمة فان أعداداً من اليهود قدمت إليها من مصر بتشجيع من البطالمة الذين كانوا يستغلون اليهود من أجل إخضاع برقة للسيطرة البطلمية. فقد ذكر المؤرخ يوسف أن بطليموس الأول أرسل فريقا من اليهود إلى مدينة قورينة ليستقروا بها. لأنه كان مهتما

بتشديد قبضته على تلك المدينة ومدن ليبيا (برقة) الأخرى.

جـ - وبعد أن استولى بومبي على مملكة يهودا وحوّلها إلى ولاية رومانية أصبح اليهود يلازمون الرومان والجيوش الرومانية ملازمة الظل. فكان يسير وراء الجيوش الرومانية التي تحمل الأعلام الإمبراطورية المزينة بالنسر الروماني رجال الأعمال وأصحاب المشروعات اليهود. ولهذا السبب قويت الجاليات اليهودية التي كانت قد استقرت في إيطاليا في القرن الثاني قبل الميلاد وفي فرنسا في القرن الأول قبل الميلاد وفي أسبانيا مع مطلع تاريخ الميلاد. فما إن بدأ القرن الميلادي الثالث حتى كان اليهود قد توغلوا في أوروبا شمالا حتى كولون في ألمانيا. ولقد نقل يوسف عن استرابو. الذي كان معاصرا للإمبراطور أوغسطس. قوله: (إن اليهود على عهده كانوا قد وجدوا طريقهم إلى كل مدينة. ومن العسير ألا تجد في أي مكان في العالم المعمور موطناً لهم). وفي عهد أوغسطس الإمبراطور الروماني الأول. أصدر هذا الإمبراطور تصريحا أعلن فيه أن يهود الإمبراطورية اثبتوا ولاءهم للشعب الروماني في الماضي والحاضر خاصة عندما كان هيركاتس كاهناً أعظم لهم في زمن يوليس قيصر. وبناء على ذلك فإن الإمبراطور أوغسطس قرر السماح لليهود بمباشرة عاداتهم طبقاً لشريعة آبائهم على نحو ما كانوا يفعلون في عهد ذلك الكاهن. وقرر السماح لهم بتحويل أموالهم إلى القدس وتوعد كل من أقدم على سرقة أموالهم أو كتبهم المقدسة بالجلد وبمصادرة الممتلكات.

د - منح الإمبراطور كراكلا اليهود في الإمبراطورية الرومانية حق المواطنة الرومانية وساواهم بغيرهم من مواطني الإمبراطورية سنة 212 م.

هـ - أما هجرة اليهود إلى شبه الجزيرة العربية فقد نشأت على شكل جدول مستمر منذ بطش بهم القائد الروماني تيطس سنة 70 م.. وما لبثت أن تحولت إلى سيل كبير خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد وذلك هربا من الحروب التي كانت مستعرة بين الفرس والبيزنطيين في سوريا وفلسطين. وقد استقر معظم اليهود المهاجرين إلى شبه الجزيرة العربية في يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادي القرى. وبسبب اقتناع اليهود بان الحرب بين الفرس والبيزنطيين ستكون حربا طويلة الأمد. وبسبب تحذير اليهود لبعضهم

البعض بان الإمبراطورية البيزنطية لن تكون مأوى صالحا للحرية فقد هاجرت أعداد منهم إلى شبه الجزيرة العربية أعداد أخرى كثيرة إلى النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية.

و – وفي إيطاليا دعا ثيودورك الكبير (454-526 م.) اليهود إلى الاستقرار في كل مدن مملكته وخاصة في روما ونابولي وفينيسيا وميلان وعاصمته الجديدة رافنا. ويقول ماكس ديمونت عن يهود إيطاليا هؤلاء: (إنهم كانوا تجاراً ورجال مصارف وقضاة ومزارعين. وصاغة مجوهرات وحرفيين. وربما كان ثلث هؤلاء اليهود في إيطاليا لا ينحدرون من نسل أسلافهم كانوا وثنيين أصلا وبدءوا يعتنقون الديانة اليهودية منذ القرن الأول للميلاد)[39].

ز - ترجع مشكلة اليهود المرتدين في أسبانيا إلى القرن السادس للميلاد عندما حمل الملك ركارد (Reccared). الذي كان متحمسا للديانة المسيحية. تسعين ألفا منهم على اعتناقها بالقوة.

حـ- وفي نفس الوقت الذي تلقى فيه كولمبس الأمر بالقيام بالرحلة التي اكتشف فيها أمريكا سنة 1492م. وقع الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا أمرا يقضي بطرد اليهود من إسبانيا. وتولى قيادة الهجرة اليهودية من أسبانيا الربيّ دون إسحاق ابرافانل (Don Isaac Abravanel) الذي كان وزيرا لمالية البلاط الإسباني. ويقدر أن خمسين ألفاً من المائة والخمسين ألف يهودي إسباني – وهم اليهود الذي كانوا ينحدرون من أسلاف عاشوا في أسبانيا منذ القرن الميلادي الأول – آثروا أن يدفعوا ثمن البقاء في ديارهم بإسبانيا فاعتنقوا المسيحية. أما المائة ألف الآخرون فقد مات منهم حوالي عشرة آلاف واستقر خمسة وأربعون ألفاً في وحوالي خمسة عشرة ألفاً في الشمال الإفريقي ومصر وعشرة آلاف في جنوب فرنسا وهولندا وعشرة آلاف في شمالي إيطاليا وخمسة آلاف في أقطار متفرقة في آسيا وإفريقيا وأوروبا وخمسة آلاف في أمريكا الجنوبية. وتمتع المهاجرون اليهود في ظل الإسلام في الشمال الإفريقي وفي مصر والإمبراطورية العثمانية لعدة قرون بحرية دينية واقتصادية كاملة لم يكونوا ليحلموا بها في عهودهم السابقة كما

39- Ibidem, p. 218.

لم يكن يحلم بها معاصروهم من أبناء جلدتهم الذين انتهت بهم الهجرة إلى أوروبا حيث لم يبق بلد أوروبي استقروا فيه إلا واضطهدهم أو طردهم. وفي سنة 1496 م. هددت البرتغال بطرد يهودها فهرب الكثيرون منهم إلى شمال أفريقيا وشمال إيطاليا والإمبراطورية العثمانية.

نلخص من كل ما تقدم إلى أن اليهود بدءوا يقيمون جاليات لهم في ليبيا فاستقروا في البداية في برقة قادمين إليها من مصر بتشجيع من البطالمة وكان المهاجرون الأوائل الذين استقروا في برقة من الأسرى اليهود الذين كان البطالمة يعودون بهم إلى مصر في إعقاب غزواتهم المتكررة لفلسطين. وفي عهد أنطيوخس الرابع السلوقي (175 – 164 ق.م.) هاجرت أعداد جديدة من اليهود المتدينين من فلسطين فراراً بدينهم وهرباً من الهلّنة التي أراد انطيوخس هذا أن يحملهم عليها فقدموا إلى برقة وانضموا إلى يهودها. ويبدو أن أعداد قليلة من اليهود تغلغلت في منطقة طرابلس في هذه الفترة وان كانت مصادرنا لا تكاد تفصح بشيء حول هذه النقطة بالذات.

أما في برقة فقد أثبتت الآثار وجود اليهود منذ العصر البطلمي في طلميثة؛ فقد عثرت بعثة المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو على عملة برونزية يهودية من ذات ربع الشاقل من النوع الذي كان سيمون المكابي (139- 135 ق.م.) قد أصدره أثناء حكمه في مملكة يهودا بفلسطين. وتقدم مقابر توكرة الدليل على أن اليهود وجدوا في تلك المدينة منذ العصر البطلمي. وهنالك أدلة كافية تثبت وجود جالية يهودية كبيرة في برنتشي في أوائل العصر الروماني[40]. ويبدو أن الجاليات اليهودية في برقة لم تقتصر على سكنى المدن فقط بل تعدتها إلى سكنى القرى في مختلف أنحاء ريف برقة. وقياسا على نشاط الجاليات اليهودية الاقتصادي في البلدان المختلفة يبدو لنا أن يهود برقة شغلوا عدداً لابأس به من الوظائف الحكومية وخاصة ما كان يتصل منها بالاحتكارات الملكية وبجباية الضرائب والأعمال المالية

40- عثرت بعثة مانشستر على أسماء يهودية منقوشة بالأحرف اليونانية على حجارة قبور توكرة وقورينة وبرقة. وكان معظمها أسملء يهودية صريحة وبعضها أسماء يهودية مترجمة للغة الإغريقية وهي ترجع للفترة 31 ق. م. – 83 م.

الأخرى كالتجارة والمرابة وغيرها. أما من سكنوا ريف برقة من اليهود فلابد أنهم اشتغلوا بالزراعة والرعي والمهن المتصلة بهما. ولم يقتصر نشاط اليهود الاقتصادي على شغل الوظائف الحكومية بل أنهم دخلوا العمل الحر فكان منهم الصاغة ورجال المصارف والتجار وأصحاب السفن والمرابون. ولا شك أن الجاليات اليهودية في برقة كانت منظمة على النحو الذي كان يقوم عليه نظام الدياسبورا الذي تعرضنا له قبل قليل. ومما يؤيد هذا الرأي أن نقشين اكتشفا في برنتشي يتضمن كل منهما قراراً أصدرته الجالية اليهودية هناك أفاد الأول منهما – ويرجع تاريخه إلى ما بين سنة 30 ق.م. وسنة 100 م. – أنه كان يرأس الجالية اليهودية في تلك المدينة سبعة أرخنة (كهان). وأفاد القرار الثاني المؤرخ سنة 25 ق.م. أنه كان يحكم تلك الجالية تسعة كهان. وورد في قرار ثالث يعود إلى عصر الإمبراطور نيرون أن عشرة من الكهان اليهود أسهموا في ترميم الكنيس اليهودي بتلك المدينة. وتجدر الإشارة بهذه المناسبة أن الجالية اليهودية في الإسكندرية كان يحكمها تسعة من كهانها في عصر الإمبراطور أوغسطس. وبالإضافة إلى كل ما تقدم فان استرابو يخبرنا أن سكان قورينة في عهد أوغسطس كانوا ينقسمون إلى أربع طبقات هي:

1- طبقة مواطني المدينة من الإغريق.

2- طبقة المزارعين.

3- طبقة الأجانب المقيمين في المدينة.

4- طبقة اليهود أي الجاليات اليهودية في قورينة.

ومن الواضح هنا أن استرابو رأى في يهود قورينة فئة قائمة بذاتها ومتميزة عن غيرها من فئات السكان ممّا يدل على أنهم كانوا يشكلون دياسبورا منظمة. وقد اكتفى يوسف بأن ينقل عن استرابو قوله إن يهود قورينة في عهد أوغسطس كانوا يشكلون طبقة منفصلة تماماً عن بقية طبقات السكان في المدينة؛ وتصرف يوسف على هذا النحو قد يشير إلى أن يهود قورينة لم يكونوا قد اكتسبوا حقوق المواطنة كاملة فيها. ويبدو لنا

أن ما يصدق على الجالية اليهودية بشكل عام لم تكتسب حقوق المواطنة الرومانية إلا في عصر الإمبراطور كراكلاّ الذي منح يهود الإمبراطورية ذلك الحق سنة 212 م.

ويبدو كذلك أن يهود برقة قد آثروا التزام جانب الهدوء والسلم بعدما تعرضوا له من قتل وتشريد فعاشوا في أمن وطمأنينة في ظل الحكم البطلمي.

ويؤيد هذا الرأي أن مصادر ذلك العصر لا تشير إلى أن اليهود كانوا طرفا في أي نزاع في برقة أو سببا له. كما إنها لا تشير إلى أنهم قد تعرضوا لأي اضطهاد أو التحموا في أي صدام مع الإغريق أو الليبيين طوال العصر البطلمي. ومع حلول العصر الروماني نجد الجاليات اليهودية قد استقرت وثبتت في الأماكن التي كانت تسكنها في برقة منذ العهد البطلمي. ولاشك أن تلك الجاليات قد قويت وتعزّزت في الأوقات التي كانت فيها على وئام مع السلطة الرومانية[41]. ولقد دلت الآثار على وجود جالية يهودية قوية في قورينة؛ فقد عثرت بعثة جامعة مانشستر[42] على قطعة عملة يهودية من ذات نصف الشاقل في قورينة يعود تاريخها إلى السنة الثانية من ثورة اليهود الأولى في القدس أي إلى سنة 68 م. كما وردت أسماء يهودية في نقش يتضمن قائمة بأسماء منظمة للشباب بالمدينة. وبالإضافة إلى قورينة وجدت على أثار طلميثة وتوكرة وأبولونيا أسماء منقوشة تثبت وجود جاليات يهودية في تلك المدن. وقد عثرت بعثة جامعة مانشستر في موسم حفرياتها سنة 1956 م. في محجر إلى الغرب من توكرة على مصباح نقشت عليه صورة الشمعدان اليهودي ذي السبعة فروع. وبالإضافة إلى الشواهد الأثرية يخبرنا بروكوبيس أن جالية من اليهود كانت تعيش بالقرب من بوريوم على خليج سرت منذ عصر قديم وأنها كان لها معبد هناك يقدسه أفرادها

41- انظر الفقرة (جـ) ، ص 400 – 401 أعلاه.

42- تعتقد بعثة جامعة مانشستر أن المدن الساحلية في برقة مثل أبولونيا وطلميثة وتوكرة وبنغازي كانت كمراكز تجارية أنسب من غيرها لسكنى اليهود في عهود البطالمة والرومان والبيزنطيين. ويذكر أن سونسيوس أحصى بحارته في رحلة له من الاسكندرية إلى قورينة فكان أكثر من نصفهم بما فيهم القبطان من اليهود.

ويزعمون أن الملك سليمان هو الذي شيده. ويضيف بروكوبيس أن الإمبراطور البيزنطي جستنيان اجبر تلك الجالية على اعتناق المسيحية وحول معبدهم المذكور إلى كنيسة.

ولاشك أن يهود برقة في العصر الروماني استمروا يمارسون أوجه النشاط الاقتصادي التي كانوا يمارسونها في العصر البطلمي وخاصة في المدن والموانئ التجارية من مثل طلميثة وقورينة وبرنتشي. وقد ذكر يوسف أن حاكم قورينة الروماني ذبح حوالي ثلاثة آلاف من أثرياء اليهود بتلك المدينة في أعقاب فتنة أشعلها يهودها سنة 70 م. ونحن نعتقد أن فتنتهم تلك ما كانت إلا تجاوبا مع يهود فلسطين الذين كانوا ثائرين على الحكم الروماني هناك. وقد وجد في برنتشي نقش سجلت عليه أسماء عدد من اليهود الأثرياء الذين كانوا قد تبرعوا لترميم كنيسهم في المدينة. وعلى نقش آخر وجد في هذه المدينة سجل قام أحد الأثرياء اليهود بكسوة أرضية وحوائط المسرح الدائري في المدينة ممّا يدل على النجاح والتقدم الاقتصادي الذي حققته الجالية اليهودية فيها. ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أيضا إن يهود ريف برقة أصابوا شيئا من الرخاء الاقتصادي وتملكوا الأراضي الزراعية وقطعان الماشية[43].

مسلك اليهود في برقة:

أولاً: نقل المؤرخ اليهودي يوسف عن استرابو أن الدكتاتور سُلاّ (Sulla) - تولى السلطة سنة 81 ق.م.- عندما كان في طريقه لمحاربة مثراديتس بعث قوة بقيادة لوكولّس (Lucullus) لإخماد فتنة قام بها يهود قورينة. ولكن بلوتارك، وهو أدم من استرابو، يشير إلى هذه الحادثة دون أي ذكر لليهود بقوله إن القائد الروماني لوكولّس عندما قدم إلى قورينة بناء على طلب رئيسه سُلاّ من أجل الحصول على سفن يعزّز بها أسطوله[44]، وجد نفسه مضطراً

43- عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966 ، 171 – 182.

44- كانت برقة في هذه الأونة أربع مدن بحرية هي: أبولونيا، طلميثة، توكرة، وبرنتشي، ومع أن أساطيلها كانت تجارية فلا بد أنها كانت لها سفن حربية لحماية السفن التجارية من القراصنة.

للتدخل لإقرار الأمن والنظام ووضع حد للاضطرابات التي كانت مستشرية في المدينة قبيل سنة 74 ق.م. ويحاول الدكتور مصطفى كمال عبدالعليم[45] أن يبين نوع تلك الفتنة وأسبابها فيردها إلى الاحتمالات التالية:

1- أن إغريق قورينة أرادوا حرمان يهودها من بعض إمتيازاتهم أو منها كلها في أعقاب وفاة بطليموس أبيون عقابا لهم على جرم ارتكبوه.

2- أن يهود قورينة ربما كانوا قد انحازوا في الصراع الذي كان مستفحلاً فيها إلى جانب لم يرض عنه الحزب المنتصر، على نحو ما فعلوا في الإسكندرية بمصر، فاستحقوا بسلوكهم ذاك سخط المنتصر وعقابه.

3- أن قورينة لم تكن راضية عن حكم البطالمة، الذي كان يهودها ركيزة من ركائزه؛ فلما انتهى عهد البطالمة واستردت المدينة استقلالها بادر إغريقها إلى الانتقام من يهودها.

4- أن اليهود ربما كانوا قد أحدثوا الفتنة في قورينة لكي يلفتوا أنظار السلطات الرومانية إلى مدى ما كانوا يتعرضون له من خطر لو استمروا موضوعين تحت رحمة الإغريق.

ونحن نضيف إلى هذه الاحتمالات احتمالاً أخرا لا يقل عنها أهمية، ونجمله فيما يلي: إن مملكة يهودا الثانية التي خرجت للوجود على يد سيمون المكابي سنة 143 ق.م. كانت تربطها بمعظم الجاليات اليهودية خارج فلسطين روابط وثيقة أشبه بالروابط القائمة في عصرنا هذا بين إسرائيل والجاليات اليهودية الموجودة خارج فلسطين. ولقد سبقت الإشارة إلى أن الدولة المكابية كانت في أواخر سني حياتها، وقبل إلغاء بومبي لها سنة 63 ق.م.، تقاسي من صراع دام شرس دارت رحاه بين أفراد الأسرة الحاكمة المتطاحنين على السلطة[46]. أفلا يجوز والحالة هذه أن تكون ذيول ذلك الصراع قد امتدت إلى يهود قورينة كرد فعل عاطفي أدى إلى انشقاق الجالية اليهودية فيها لاختلافها حول من هو أَوْلى بالسلطة في القدس؟ وقد نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنّه ربما قدم إلى قورينة بعض من يهود فلسطين في أواخر عهد

45- المرجع السابق نفسه، ص 195 – 196.
46- انظر ص 395 – 396 أعلاه.

الدولة المكابية فجلبوا إليها معهم بذور ذلك الصراع الذي سبقت الإشارة إليه. وعلى أساس هذا الاحتمال فإن ما حدث في قورينة في هذه المناسبة قد لا يعدو كونه صراعا محلياً بين أفراد الجالية اليهودية نفسها ممّا سهّل على لوكولّس وضع حد له.

ثانيا: يبدو أن السياسة التي سلكها الإمبراطور أوغسطس نحو اليهود والتي سبق أن لمحنا طرفاً منها في تصريحه[47] الذي أقر فيه لهم بامتيازاتهم الطائفية ظلّت متبعة بعده حتى حوالي وفاة نيرون سنة 68 م. وفقد تمتعت برقة وغيرها من ولايات الإمبراطورية في هذه المرحلة بفترة من الهدوء والاستقرار ممّا أدى إلى إقبال الناس على أعمالهم في طمأنينة وبالتالي إلى انتشار الازدهار وعموم الرخاء ولكن تلك النعم لم تدم طويلاً إذ ما لبثت علاقات الرومان باليهود أن تعكرت وقام اليهود بثورتهم الأولى على الرومان في فلسطين سنة 66 م.[48] وقد ذكر سلوش أن يهود قورينة أسهموا في الدفاع عن القدس كما ذكر يوسف أنّه في المراحل الأخيرة من حصار القدس فر بعض زعمائها إلى قورينة وكان بينهم ثلاثة إخوة هم أبناء كاهن القدس الأعظم إسماعيل. ولدى وصول أولئك الإخوة إلى قورينة ألقي القبض عليهم وأعدموا شنقاً. وكانت بين اليهود الفارين من القدس إلى قورينة جماعة من المتدينين المتطرفين يتزعمهم يونثان النساج الذي وصفه يوسف أنه زنيم أشر وبأنّه استطاع أن يستميل إليه عدداً غير قليل من يهود قورينة من الطبقة الفقيرة وقادهم إلى الصحراء حيث راحوا يعيثون فساداً في الأراضي المحيطة بقورينة[49]. ويبدو أن بعض الأرستقراطيين من يهود قورينة من الطبقة الثرية ممّن كانوا ميالين للهلّنة ويستفيدون من تقاربهم مع إغريقها رأوا في تلك الثورة خطراً يهدد مصالحهم وكيانهم فتعاونوا مع كاتلّوس (Catallus) حاكم قورينة الروماني، حتى تمكن من إلقاء القبض على يونثان بالدور الذي لعبه ذلك النفر من أثرياء يهود قورينة

47- انظر ص 301، أعلاه.
48- انظر ص 396 أعلاه.
49- عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966 ، ص 198.

ضده فأراد أن يورطهم في قضيته بأن أبلغ الحاكم أنهم هم الذين خططوا لثورته وموّلوها. ووجدت هذه التهمة هوى في نفس الحاكم فراح تخير أثرياء اليهود في قورينة ويعدمهم. وقد حمل يوسف على كاتلّوس ونعى عليه سرعة تصديقه لأقوال يونثان، وعلل تصرفه بأنّه كان ناجماً عن حقده على اسكندر، أحد أثرياء يهود قورينة، ولذلك فإنّه أوعز إلى يونثان باتهام اسكندر وزوجته بالتورط في الثورة، ثم أعدمهما بتلك التهم وراح يمعن في الانتقام من أثرياء اليهود حتى ذبح منهم حوالي ثلاثة آلاف. ولكي يبرر كاتلّوس فعلته أوعز إلى يونثان أن يكيل التهم جزافاً للشخصيات اليهودية البارزة ليس من يهود قورينة فحسب وإنّما أيضاً من يهود الإسكندرية وروما. وكان المؤرخ يوسف من بين المتهمين فقد اتهمه يونثان أنه زوده بالمال والسلاح للمضي في الثورة. وعلل يوسف نفسه توجيه التهمة له[50] بأن المكانة الممتازة التي كان يتمتع بها بعد أن منح حق المواطنة الرومانية أثارت غيرة اليهود وحسدهم ودفعتهم إلى اتهامه بالخيانة لقضيتهم أولاً ثم إلى اتهامه بالتورط في مساندة يهود قورينة.

وسيق يونثان والأسرى من أتباعه مكبلين في الأصفاد إلى روما حيث قدموا إلى الإمبراطور فسبسيان فأمر بإطلاق سراحهم باستثناء يونثان الذي أمر بتعذيبه أولا ثم بحرقه.

مما تقدم يتضح لنا أن ثورة يهود قورينة كانت في الدرجة الأولى تجاوبا مع ثورة يهود القدس في فلسطين. أما موقف الأرستقراطية اليهودية في قورينة، وهو موقف معادٍ، فيفسره أمران:

الأول: أنها كانت حريصة على ثورتها وكيانها ومصالحها المتوقفة على وجود علاقات طيبة بينها وبين إغريق قورينة من ناحية ثم بينها وبين السلطة الرومانية الحاكمة من الناحية الأخرى. وقد رأينا أن حاكم قورينة الروماني كان مشككاً في ولاء هذه الطبقة من اليهود بالرغم من محاولتهم إثبات العكس بتعاونها مع السلطة ضد الثوار.

والثاني: أن غلاة اليهود الذين قدموا إلى قورينة هاربين من القدس ربما

50- انظر حاشية (1)، ص 396 أعلاه.

كانوا قد حاولوا إقناع الأرستقراطية اليهودية في قورينة بالانضمام إلى الثورة تخفيفا للضغط الواقع على القدس المحاصرة فرفضت الاستجابة لدعوتهم مراعاة لظروفها الخاصة. وكان رفضها الاستجابة لدعوتهم ذاك كافياً لجعل الثوار يعادونها ويتهمونها بالخيانة. وفي رأينا أن هذا الأمر بعينه هو الذي يعلل اتهام يونثان لأثرياء يهود قورينة بالتورط في الثورة كوسيلة للانتقام منهم بيد السلطة الرومانية كما يعلل اتهام يونثان للمؤرخ يوسف بالتهمة ذاتها لأن الأخير كان قد تخلى عن قيادة ثوار الجليل من اليهود بفلسطين واستسلم للرومان وقَبِل حق المواطنة الرومانية من دولة كانت تضطهد أبناء جلدته. وزاد الطين بلة فرافق القوات الرومانية التي كانت تحاصر القدس من أجل كتابة تاريخ تلك الحرب. وهي أسباب أدت مجتمعة إلى اتهام اليهود ليوسف بالخيانة حتى اليوم. وإذن فإن يونثان لم يوجه التهم إلى الأرستقراطيين من اليهود في فلسطين بناء على إيعاز حاكم قورينة الروماني وإنما فعل ذلك تعبيراً عن موقف الثوار اليهود في فلسطين أولاً ثم في برقة ثانياً. وبهذه الدوافع ذاتها أقدم كذلك على اتهام يوسف بالتورط في دعم الثورة الفاشلة على أمل الانتقام منه بيد السلطة الرومانية التي كانت ترعاه. ولعل هذا هو ما جعل الإمبراطور فسبسيان يفرج عن الأسرى من الثوار اليهود بتعذيب يونثان ثم بحرقه[51].

وترتب على هزيمة اليهود في القدس وهزيمتهم في قورينة في السنة ذاتها (70 م.) تغير السياسة الرومانية نحوهم؛ فقد بالغت السلطة الرومانية في تقتيل اليهود وتشريدهم ولم تكتف بذلك بل سعت لإذلالهم وذلك بفرض ضريبة نصف وشاقل على كل من كان في سن الثالثة فما فوق من ذكورهم في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية على أن تدفع لمعبد الإله الوثني جوبيتر الروماني بعد أن كان مسموحاً لليهود أن يدفعوها لهيكلهم في القدس. وكان هذا الإذلال وما رافقه من صنوف الضغط وسوء المعاملة بمثابة بذور ثورة يهودية أخرى.

51- قارن هذا التعليل بالتعليل المغاير الذي أورده الدكتور مصطفى كمال عبد العليم في كتابه: دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966، ص 198 – 199.

ثالثاً: ولم تلبث الفرصة أن سنحت عندما قام الإمبراطور تراجان بغزو بارثيا فاغتنم اليهود فرصة انشغاله وثاروا في كل من قورينة ومصر وقبرص وأنطاكية ومسوبوتاميا. وكانت هذه الثورة الكبرى الثانية لليهود على الحكم الروماني.ويبدو لنا أن السبب الرئيسي الذي حدا باليهود للثورة من جديد وفي البلدان الخمسة المذكورة هو إلغاء السلطة الرومانية لبعض الإمتيازات التي تعود اليهود أن يتمتعوا بها، وتعمدها إذلالهم بشتّى الطرق، وعجزهم عن إعلان الثورة في فلسطين نظراً لأنهم لم يكونوا قد التقطوا أنفاسهم بعد بسبب ما ألحقه بهم تيطس من بطش وتشريد، وهدم للهيكل، ومصادرة للأموال والممتلكات، ونظراً للرقابة والحراسة المشددة التي كان الرومان يفرضونها على من تبقى من يهود فلسطين في أعقاب ثورتهم الأولى، ولوجود الجيش الروماني بقيادة الإمبراطور نفسه على حدود بارثيا غير بعيد عن فلسطين. وإذن فإن ثورة الجاليات اليهودية في الأقطار المذكورة لابد أن تكون قد جاءت نتيجة لمؤامرة مدبرة شاركت في طبخها الجالية الأم في فلسطين بواسطة أفرادها الذين ظلموا ينزحون عن فلسطين بعد سنة 70 م. على شكل جدول مستمر من الهجرة.

وكانت إلى جانب هذه الأسباب أسباب أخرى أهمها أن اليهود صاروا يكرهون الإغريق وكل ما هو إغريقي منذ أن حاول الإغريق السلوقيين أن يفرضوا الهلّنة عليهم بالقوة. ومّا كان يؤجج لهيب تلك الكراهية جشع اليهود واشتغالهم بالمرابأة ولعهم بالسيطرة على رأس المال. وثمة أمر آخر هو أن ثورة اليهود السابقة في قورينة لابد وأن تكون قد ألحقت الأذى بإغريق قورينة وبمصالحهم بشكل مباشر مّا زاد في كره الإغريق لليهود. ذلك الكره التقليدي الذي انبثق عن كون اليهود ركيزة للحكم البطلمي السابق في برقة. وكانت هذه الثورة اليهودية في برقة عنيفة إلى حد أن الحامية الرومانية عجزت عن إخمادها، واضطر الإمبراطور إلى سحب قوات من أماكن أُخرى من الإمبراطورية لتساعد في إخضاعها.

وفي البداية اتخذت هذه الثورة شكل فتنة إما بين اليهود أنفسهم أو بينهم وبين الإغريق ثم تحولت إلى صدام دامٍ بين اليهود والرومان إثر تدخل

الحامية الرومانية لوضع حد للفتنة. ولقد أكدت المصادر المكتوبة أن هذه الثورة لم تقتصر على قورينة وحدها بل انتشرت حتى عمّت مدن برقة وقراها، وإن كانت مركزة في قورينة وضواحيها. كما إن المكتشفات الأثرية أثبتت صحة ما أوردته المصادر المكتوبة. والتف اليهود جميعهم هذه المرة حول زعيمهم وملكهم لوقاس أندرياس «Lukaas-Andreas» لأنهم على ما يبدو لم ينسوا الدرس الذي تعلموه من ثورتهم السابقة والذي أثبت لهم أن تعاونهم مع السلطة ضد بعضهم البعض لا يمكن أن يؤدي إلى ضمان مصالحهم ومراكزهم، فكأنّما رأوا هذه المرة أن الضمانة الحقيقية الوحيدة لهم تكمن في اتحادهم وتكاتفهم في وجه الوثنيين الإغريق والرومان. وتمكن اليهود بقيادة زعيمهم المذكور أن يستولوا على مدينة قورينة ويستبيحوها ويحرقوها.. ولم تلبث الجاليات اليهودية الأخرى أن ثارت في كل من مصر وقبرص وأنطاكية ومسوبوتاميا، ومع نهاية سنة 115 م. أو بداية سنة 116 م. كان التعاون تاماً بين يهود برقة ويهود مصر فقد زحف يهود برقة – في شتاء سنة 116 م. على الأرجح – بقيادة زعيمهم واكتسحوا ودمروا وحرقوا كل ما صادفوه في طريقهم حتى بلغوا مشارف الإسكندرية. ولّما عجزوا عن اقتحام الإسكندرية انتشروا في داخل مصر وراحوا يؤازرون يهودها في تشديد النكير على الإغريق والرومان هناك. ونحن وإن كنا نجهل التفاصيل العسكرية الخاصة بهذه الثورة إلا أنّا نعرف أنها كانت حرباً عنيفة تميزت بالشراسة والوحشية فقد ورد في كتاب لـ»ديوكاسيوس» «Dio Cassius» فصل شرحه «كزيفيلينوس Xiphilinus» يبين وحشية اليهود ويصفهم بما يلي: «كانوا يأكلون لحم ضحاياهم من الناس، ويتحزمون بأمعائهم، ويدّهنون بدمائهم، ويتدثرون بجلودهم. وكم من ضحية نشروا جسمه إلى نصفين من الفرق إلى القدم ! وكم من ضحايا أخرى ألقوا بها للوحوش الضارية وأجبروهم على مصارعة بعضهم البعض حتى الموت! وقد ذهب ضحية هذه الثورة في برقة حوالي مائتين وعشرين ألفاً. وقام اليهود بأعمال وحشية مشابهة في مصر، وأخرى لا تقل عن غيرها وحشية في قبرص بقيادة «آرتيميون» «Artemion» حيث بلغ عدد ضحاياهم حوالي

مائتين وأربعين ألفاً»[52] .ويناقش «اسكندر فكس» «Alexander Fuks» مظهر هذه الوحشية فيذكر أن مراجع أخرى أصحاب تلك المراجع لم يكتبوا ما كتبوه بدوافع لا سامية. ثم يذكر أن اليهود تركوا البلاد وراءهم محروقة، وأن ليبيا (برقة) كان من الممكن أن تظل صحراء قاحلة بعد أن قتل اليهود معظم مزارعيها لولا أن الإمبراطور هدريان بذل جهوداً كبيرة وأرسل أعداداً من المستوطنين الجدد لتعميرها. وبعد ذلك يتساءل فكس عن دوافع اليهود للتصرف على النحو الذي تصرفوا به وعمّا إذا كانت حركتهم تهدف إلى تدمير البلاد والعودة إلى فلسطين. وهو وإن لم يذكر أسباب هذه الثورة فقد أشار إلى بعض أهدافها التي يقول إنّه ربما كان منها أيضا إبادة الوثنيين وآلهتهم.وفي رأينا أن أسبابها الرئيسية كانت سياسية واجتماعية وأنها جاءت تعبيراً عن تعصب اليهود الديني والعنصري.

واهتم الإمبراطور تراجان بهذه الثورة فأرسل قائده ماركيوس توربو في حملة على مصر وبرقة وأخمد بها الثورة في البلدين فقضى على الثورة في مصر في يوليو- أغسطس (تموز إلى آب) سنة 117 م. واقتحم أسوار قورينة وسحق ثورة برقة. ولا شك في أن العقاب الذي أنزلته القوات الرومانية باليهود كان متناسباً مع الجرائم التي اقترفوها فقد تعرضوا في قورينة وغيرها لحملة انتقامية استهدفت خلعهم من جذورهم حتى لا يعود بوسعهم القيام بأية ثورة جديدة في المستقبل. ونتج عن ذلك مقتل الكثيرين منهم بينما لاذ آخرون بالفرار إلى الدواخل طلباً للنجاة فالتجأوا إلى القبائل الليبية المناهضة للرومان وأسهموا في تنظيمها وتوجيه مقاومتها الطويلة للحكم الروماني. ويرى بعض الكتّاب أن هذا العنصر اليهودي اجتذب الكثيرين من البربر للديانة اليهودية وأسهم حتى في مقاومة الفتح العربي للشمال الإفريقي فيما بعد. فهذا هو جون رايت يقول في الحديث عن هذه النقطة بالذات: «ظهر في القرنين الخامس والسادس للميلاد في سهول الاستبّس على حاشية الصحراء في كل من تونس وطرابلس اتحاد

52- The Journal of Roman Studies, Vol. LXVIII, p. 32 and Vol LI parts I & II, Society for Promotion of Roman Studies, London, 1961, pp. 98 – 104, Aspects of the Jewish Revolt A.D. 115 – 117, by Alexander Fuks.

قوي لقبائل زناتة البربرية وكانت قوّته الرئيسية من الهجّانة الذين ربما كانوا يتوغلون نحو الصحراء بعد سقوط الأمطار الأولى بينما يقضون الصيف في الجبال. وقد سمي جبل نفوسة ذاته باسم عنصر يهودي مهم في اتحاد زناتة. وما زال الاعتقاد سائداً بالتأثير اليهودي. أو حتى القيادة اليهودية هما اللذان كانا السبب في ذلك التماسك غير العادي الذي تميز به اتحاد زناتة إذا ما قورن بغيره من اتحادات القبائل الصحراوية؛ فاللاجئون اليهود الذين هربوا إلى الصحراء في الجنوب والغرب من برقة بعد ثورتهم هناك سنة 115 م. ربما كانوا نواة الهجّانة الزناتيين الذين كانوا يكرهون الرومان ويناضلون ضدهم في القرون المتأخرة. والملكية الزناتية. الكاهنة داهية. التي حاربت العرب بعنف في القرن السابع الميلادي تحمل اسما يهودياً ربما كان صورة مبكرة لاسم (كوهن) الشائع حاليا بين اليهود»[53].

أما قائد الثورة لوقاس ـ أندرياس (لوقا أندريا) فلم يعرف كيف كان مصيره وإن كنا نجد إغريق الإسكندرية يمثلونه بشخصية هزلية على مسارحهم تعبيراً عن سخريتهم من آمال اليهود في الخلاص والتحرر[54]. وكان من الطبيعي أن يترتب هذه الثورة وما واكبها من أعمال تخريب وعنف، ثم ما تلاها من أعمال قمع مضادة أمران رئيسيان: مصير الجالية اليهودية في برقة والجاليات اليهودية التي كانت قد ثارت في نفس الوقت في مناطق أخرى من الشرق الأوسط. ثم مستقبل برقة بعد ما لحقها من تدمير وتخريب. أما بالنسبة للجالية اليهودية في برقة فإنّا لا نشك في أن أعداداً كبيرة منها فروا بحياتهم بعيداً عن عين السلطة الرومانية ويدها فالتجأوا إلى دواخل ليبيا بينما التجأ بعضهم إلى طرابلس حيث كانت أعداد منهم قد استقرت بعد مجيئها طلباً للتجارة والعمل في ركب الفينيقيين بينما آثر آخرون أن يبتعدوا قدر المستطاع عن برقة فوصلوا إلى بحيرة تشاد وحوض النيجر الأوسط والسنغال وغرب أفريقيا ومناطق أخرى من دواخل القسم

53- Wright, John, Libya, The Nations of the Modern World Series, Ernest Benn Limited, 1st Edition, 1969, P. 70

54- عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية، بنغازي، 1966 ، ص 204.

الشمالي من أفريقيا والسودان. أما بالنسبة للخراب الذي ألحقته الثورة اليهودية بمنطقة برقة فقد أسرع الإمبراطور تراجان ليقيلها من عثرتها وبدأ في الأيام الأخيرة من حياته يرسل المهاجرين إلى منطقة قورينة لإعادة تعميرها. ونحن نعرف أنه عين قبيل وفاته في شهر أغسطس سنة 117 م. عريفاً لمعسكر في أراضي قورينة كان قد أنزل فيه ثلاثة آلاف من الجنود المتقاعدين. وجاء بعده الإمبراطور هدريان فواصل سياسة سلفه الإصلاحية بكل جد ونشاط وأنزل أعداداً من الجنود المتقاعدين في كل من قورينة وتوكرة وأبولونّيا ومدن برقة الأخرى[55]. ولقد دلّت النقوش الكثيرة التي اكتشفت في قورينة وبعض مدن برقة الأخرى على أن أعمال هذا الإمبراطور قد شملت مجالين أساسيين وهما:

أولاً: مجال العمارة: فقد نشط هذا الإمبراطور في ترميم المعابد والمباني العامة والطرق التي خربت أثناء الثورة. وأعاد إقامة التماثيل التي أُزيلت من أماكنها مع إصلاح أو استبدال ما هشم منها.

ثانياً: مجال الاقتصاد: فقد تبين للإمبراطور هدريان أن نسبة كبيرة من القوة العاملة وخاصة المزارعين الإغريق قد قتلوا ودمرت مزارعهم؛ وعلى ضوء ذلك أصدر الإمبراطور قراراً يقضي بإدخال مستوطنين جدد للمنطقة. ولقد نشر مؤخراً نقش يشير إلى أن ثلاثة آلاف جندي مسرح أحضروا إلى مدينة قورينة، ولابد أن بعض هؤلاء أو غيرهم قد أنزلوا في المدينة الجديدة التي أقامها هذا الإمبراطور وسماها باسمه (هدريانوبولس)[56]. وإن دل هذا شيء فإنما يدل على أن هدريان استقدم كثيراً من المستوطنين الجدد وأنزلهم في مختلف النواحي التي كانت مأهولة قبل قيام الثورة اليهودية، إذ لا يعقل أن يقتصر برنامج الإمبراطور الإصلاحي على مدن بعينها مثل قورينة وأبولونيا وصفصافة والقبة. ولعل من المفيد بهذا الخصوص أن نشير إلى عبارة «مصلح ليبيا» «Restitutor Libyae» التي وردت على نقود هدريان.

55- The Journal of Roman Studies, Society for Promotion of Roman Studies, London, Vol. XL, parts I & II, 1950, pp 87 – 88.

56- عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية، بنغازي، 1966 ، ص 204 - 205.

ويذكر أيضاً أن خلفاء هدريان تابعوا برنامجه الإصلاحي من بعده لان عصره وحده لم يكن كافياً لإصلاح الخراب الشامل الذي أحاق ببرقة والذي جعلها «لفترة طويلة من الزمن منطقة شبه خالية من السكان، فقيرة جدا في الموارد وفي الإمكانات ولم تجد في إصلاحها وتعميرها بالسكان محاولات من خلف تراجان من أباطرة الرومان. وفقدت وإلى آخر العهد الروماني ذلك الوجه الحضاري الذي اشتهرت به قبل تلك الثورة في التاريخ»[57].

57- بازامه، محمد مصطفى، بنغازي عبر التاريخ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي 1968، جـ 1، ص 188 – 189.

التنظيم الروماني الإداري والمدني في ليبيا

أولاً: في عهد الجمهورية (146 – 29 ق.م.)

بعد تهديم قرطاجة في أعقاب الحرب البونيقية الثالثة سنة 146 ق.م. ابتلعت مملكة نوميديا، حليفة روما، معظم الأراضي التي كانت تابعة لقرطاجة ولم يبق منها سوى موقع قرطاجة نفسها ومساحة صغيرة حول ذلك الموقع وبعض المدن الفينيقية مثل يوتيكا التي لم تقف إلى جانب قرطاجة في صراعها مع روما. وقامت روما بضم موقع قرطاجة والأراضي الملحقة به إليها كأول ولاية إفريقية وسمتها «إفريقيا الرومانية» «Africa Romana» وكانت حدودها تبدأ من مصب الوادي الكبير قرب طبرقة وتمتد حتى جنوبي طينة على خليج سرت الصغير (=خليج قابس). وقد عين سكيبيو أفريكانس حدود هذه الولاية بخندق أمر بحفره بينها وبين الأراضي النوميدية وهو الخندق الذي عرف باسم «Fossa Scipionis» أي خندق سكيبيو. ولكن الرومان كانت وساوسهم تمنعهم من استصلاح هذه الولاية واستعمارها خوفاً من اللعنة التي كانوا يعتقدون بحلولها على قرطاجة. ولذلك فهم لم يفعلوا شيئاً سوى حفر الخندق والقيام بمسح أراضي هذه الولاية ما عدا المدن السبع التي كانت روما قد منحتها حريتها مكافأة لها على تخليها عن قرطاجة أثناء الحرب البونيقية الثالثة[58]. وقد ظلت هذه الولاية على تلك الحالة حتى أيام الإمبراطور أوغسطس الذي كان يتمتع بشجاعة تكفي لتمكينه من إهمال مخاوف قومه ووساوسهم فعمر قرطاجة الرومانية على أنقاض قرطاجة البونيقية واستقدم لها عدداً كافيا من المهاجرين الرومانيين وصارت بعد ذلك عاصمة للولاية بعد يوتيكا[59].

58- المدن السبع هي: يوتيكا، حدرموت (= سوسة)، لبدة الصغرى (= لمطة)، ثابسوس (= رأس الديماس قرب المهدية)، إشولة (= جمة أو رأس بوطرية)، إسولة (= إنشيلة شمالي صفاقس) وثوداليس (= عين طلة؟).

59- صفر، أحمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، دار النشر – بو سلامة، تونس، ج 1، ص (297).

أما في ليبيا فإن المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس كان مسينسا قد انتزعها من قرطاجة بموافقة روما في الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد. وقد ظلت تابعة لمملكة نوميديا حتى سنة 111 ق.م. عندما عقدت روما حلفاً مع لبدة بناء على طلب الأخيرة. ويعتقد أن أويا وصبراتة حذتا حذوّ لبدة وبذلك دخلت هذه الحليفات الصغيرة تحت نفوذ الحليفة القوية روما. وفي برقة كان بطليموس أبيون قد أوصى ببرقة للرومان قبيل وفاته سنة 67 ق.م. فضموها إليهم بين سنتي 75 و 74 ق.م. دمجوها في ولاية واحدة مع كريت وظلت كذلك حتى عهد أوغسطس حينما بدأ الرومان يعتنون باستثمارها. وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وبيزنطية في عهد قسطنطين الكبير ألحقت برقة بالإمبراطورية البيزنطية وظلت حتى فتحها المسلمون.

وفي أواخر العهد الجمهوري في روما أحدث يوليس قيصر بعد انتصاره على بومبي عدة تغيرات تنظيمية فجعل من نوميديا الشرقية ولاية إفريقيا الجديدة «Africa Nova » وضم لها منطقة طرابلس الساحلية. وكانت الولاية الجديدة تمتد موازية لولاية إفريقية الرومانية ويحدها من الغرب خط يمر غربي عنابة في الجزائر وغربي قالمة ويتجه جنوباً حتى سواحل خليج قابس.

أما ولاية إفريقية الرومانية فقد غير اسمها إلى إفريقية القديمة «Africa Vetus» وظلت رقعتها كما كانت، محصورة بين البحر وخندق سكيبيو.

ثانياً: في عهد الإمبراطورية (29 ق.م. – 439 م.)

في سنة 27 ق.م. دمج الإمبراطور أوغسطس هاتين الولايتين القديمة والجديدة في ولاية بروقنصلية أو إفريقية فقط.ولقد سبق أن أشرنا إلى أن الإمبراطور أوغسطس كان قد اتفق مع مجلس الشيوخ الروماني على اقتسام إدارة الولايات بحيث تكون الولايات المسالمة الهادئة التابعة لمجلس الشيوخ بينما تتبع الولايات الأخرى للإمبراطور. وكانت ولاية افريقية

البروقنصلية تابعة إدارياً لمجلس الشيوخ الذي يتولى تعين والٍ لها برتبة بروقنصل «Proconsul» أي نائب قنصل يشرف على سير الأحوال فيها فكان يشرف على تطبيق القانون داخل الحدود البلدية للمدن ويتولى تطبيقه خارج تلك الحدود. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان البروقنصل معنياً في الدرجة الأولى بشؤون الضرائب. والضرائب الرومانية كانت عبارة عن نوعين: ضرائب مباشرة وضرائب غير مباشرة. ولقد ظل أساس الضرائب المباشرة في منطقة طرابلس يستند إلى الضريبة التي كان يوليس قيصر قد فرضها على لبدة – وإن كان من المعتقد أنها خفضت فيما بعد نتيجة للمسح الذي أجري في عهد أوغسطس لتقدير مدى ما كان لكل ولاية من الولايات أن تتحمله من الضرائب. أما الضرائب غير مباشرة فكانت أربعاً:

1- رسوم جمركية تفرض على البضائع المستوردة براً وبحراً.

2- رسوم وفاة تؤخذ من تركة المتوفى بمقدار 5% وكانت تطبق على المواطنين الرومان فقط.

3- رسوم على تجارة جل الرقيق مقدارها 5% من ثمن الرأس الواحد.

4- رسوم على تجارة بيع الرقيق مقدارها 4% من ثمن الرأس الواحد.

وكانت هذه الضرائب غير المباشرة تحال على المتعهدين سواء كان المتعهد فرداً أو شركة. خلال القرن الميلادي الأول فيدفع المتعهد قيمة الضرائب ويجبي هو أقصى ما يستطيع جبايته من الأهالي. وقد بذل الإمبراطور أوغسطس جهوداً كبيرة في سبيل القضاء على ما في هذا النظام من عيوب ومساوئ كانت سبباً في الفضائح الكثيرة التي وقعت في أواخر العهد الجمهوري في روما. وفي أيام الإمبراطور فسبسيان (69-79 م.) كان لكل دائرة إفريقية مجلس ولاية «Concilium» له صلاحية تخطي البروقنصل وتقديم الظلامة مباشرة للإمبراطور. وفي عهد تراجان أوقف العمل بنظام المتعهدين في جباية الضرائب غير المباشرة وأصبح يتولى تحصيلها موظفون رسميون تابعون للإمبراطور. وكان مكتب الضرائب الرسمي في لبدة يتكون من دائرتين إحداهما مسئولة عن تحصيل الضرائب المستحقة على البضائع

المستوردة بحراً وعلى الوفيات. والأخرى تختص بتحصيل الضرائب المستحقة على البضائع المستوردة براً وعلى حلب وبيع الرقيق.

ولما كان البروقنصل وموظفوه القليلون لا يستطيعون القيام بالروتين الحكومي جميعه. فإنهم صاروا يعتمدون كثيراً على البلديات وأجهزتها المحلية. وهذا يفسر لنا عدم تدخل الرومان في الشئون البلدية في المدن الثلاث التي استمرت تحتفظ بنظامها البلدي ودساتيرها البلدية الفينيقية طيلة العصر الروماني. وقد رد الإمبراطور أوغسطس لهذه المدن الثلاث حريتها التي سلبها إياها يوليس قيصر فأبح الآن لا يجوز للبروقنصل أن يتدخل في شئونها البلدية. وفي القرن الميلادي الثاني رفع مستوى المدن الثلاث إلى درجة مستوطنات «Colonies» وبذلك نالت هذه المدن حقوق المواطنة الرومانية وأصبح سكانها مواطنين رومانيين لهم حقوق ابن روما وعليهم واجباته. وكانت أولى هذه المدن في الحصول على تلك الحقوق مدينة لبدة (109-110 م. في عهد تراجان) ثم أويا (حوالي 150 م.) ثم صبراتة في عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس (137-161 م.)[60] ولقد احتفلت المدن الثلاث بهذا التقدير الذي منحتها إياه روما فبدأت تضع صور الأباطرة على عملاتها إعراباً عن اعترافها بالجميل. ولابد أن نذكر بهذا الصدد أن روما كانت تمنح درجة مستوطنة «Colony» لمدن ولاياتها إرضاء لكبرياء تلك المدن عن طريق إشعارها بأنها صارت عبارة عن أجزاء من مدينة روما نفسها واقعة ليس في روما وإنما خارجها في الولايات المعنية. وإن دلَّ تزايد إقبال مدن الولايات على المطالبة بهذا الشرف خلال القرن الميلادي الثاني على شيء فإنما يدل على ارتفاع أسهم شعبية الحكم الروماني. كما أن انتشار تلك الشعبية على نطاق واسع يدل على تزايد أهمية الولايات بالنسبة للعاصمة. ولقد كانت العاصمة نفسها تستفيد معنوياً ومادياً من منح حق المواطنة الرومانية لمدن الولايات؛ فهي كانت تستفيد معنويا لتزايد شعبيتها بتزايد عدد المدن والجماهير المرومنة. وكانت تستفيد مادياً لأن تلك الجماهير التي

60- بالنسبة لمدن برقة ومسألة اكتساب حقوق المواطنة الرومانية سميت كل من سيرين وتوكرة باسم «Colonia» وذلك على لوح «Tabula Peutingeriana» ولكننا لا نعرف متى منحتا ذلك الحق ولا نعرف مدى تأثيره على دستوريهما الداخليين.

كانت تسكن مدن الولايات المرومنة صار ينطبق عليهم قانون تحصيل ضرائب الوفيات الذي سبق الإشارة إليه. أما مدن الولايات نفسها فلم تكن تجني من منحها حقوق المواطنة الرومانية سوى الفائدة المعنوية، وإن كانت هنالك ظروف خاصة تؤدي إلى منح مدينة من ذلك النوع امتيازاً إضافياً يعفيها من ضرائب العقارات وتصبح وكأنّها إحدى المدن الإيطالية. وقد تمتعت مدينة لبدة بهذا الامتياز الذي منحها إياه ابنها البار سيبتيموس سويرس مناسبة زيارته لها سنة 203 م. ومن باب العرفان بالجميل سمى أبناء لبدة مدينهم سبتيميا «Septimia» وسموا أنفسهم سبتيميين «Septimiani». ولكن تسرعت تحت تأثير ذلك المد العاطف فتعهدت مختارة أن تمد روما مجاناً بكمية سنوية من زيت الزيتون، فلم يلبث هذا التبرع حتى تحول إلى التزام على لبدة، وحقٍّ لروما تطالب به إن تأخر عن موعده.

ولما حصلت المدن الثلاث على حقوق المواطنة الرومانية وأصبحت بدرجة مستوطنات رومانية بدأت تغير حكمها المحلية أو على الأصح تغير أسماء تلك النظم، التي كانت لا تزال فينيقية، ولكي تنسجم مع التقاليد الرومانية. وصارت كل مدينة تقسم سكانها إلى دوائر انتخابية على غرار الحال في روما. ولقد سمت لبدة ثماني دوائر من دوائرها الانتخابية الإحدى عشرة المعروفة بأسماء أسرة تراجان اعترافاً بجميله في منحها حقوق المواطنة الرومانية كاملة. وربما كانت تسمية صبراتة لدوائرها بأسماء أسرة أنطونيوس بيوس ترجع لسبب مماثل. وكانت الدوائر الانتخابية في كل مدينة تشكل بمجموعها الجمعية الوطنية للمدينة، تلك الجمعية التي كانت تتولى القيام بالأمور الشكلية من مثل المصادقة على ما يقدم إليها من مشروعات، والتصديق على المرسومات التكريمية، وانتخاب القضاة من ضمن قائمة أسماء أشخاص جرى ترشيحهم مقدماً. ونتيجة لإصلاحات الإمبراطور ديو فلتيان (285-305 م.) أصبحت منطقة طرابلس ولاية قائمة بذاتها وأصبحت لبدة عاصمة لها.

الحياة في المدن الرومانية

سلكت المدن الثلاث في منطقة طرابلس والمدن الخمس في منطقة برقة على نحو ما سلك غيرها من المدن في الولايات المختلفة فبدأت تقلد روما ليس في نظمها وشرائعها فحسب وإنما أيضاً في كل وجوه حياتها. والمعروف عن المدينة الرومانية أن مركز الحياة فيها هو الفورم «Forum» وهو عبارة عن ساحى مرصوفة ومكشوفة لا تصل إليها وسائل النقل ذات العجلات. وتحيط بها المعابد الرئيسية والأبنية العامة بالإضافة للمكاتب والحوانيت. وبذلك فإن الفورم كان يقوم بوظيفة المركز الاجتماعي ومركز المعلومات وساحة الاجتماعات الشعبية؛ فكان الرجل يذهب إلى الفورم ليرى أو يسمع ما في مدينته من جديد وليتبادل الاحاديث مع أصدقائه في ظل الأعمدة المحيطة بالفورم أو ليتمشى في المساء بين التماثيل المقامة بمرسومات بلدية تكريماً للأباطرة والمحسنين من أبناء المدينة. وكان الناخبون يجتمعون في الفورم للسماع للقضاة أو للتصويت، وكانت منابر الخطابة تقام أغلب الأحيان أمام المعابد الخاصة «بروما» من مثل معبد «روما وأوغسطس» في لبدة وباستثناء المعابد كانت أهم الأبنية المقامة على الفورم هي بناء الكوريا «Curia» وبناء الباسيليكا «Basilica». وكانت الكوريا عبارة عن القاعة التي كان المجلس البلدي «Ordo Decuniorum» يعقد اجتماعاته فيها برئاسة القضاة السنويين. أمّا الباسيليكا التي يمكننا أن نقول إنها كانت امتداداً للفورم فقد كانت مسقوفة للوقاية من الشمس والمطر. وكانت تقوم فيها المحاكم والبورصة كما كان يسمح لعامة الشعب بالدخول إليها بحرية فيتسلون بالاستماع إلى المحاكمات، أو المساومات بين التجار، أو المحاضرات العامة.

ولم يكن الفورم المكان الوحيد الذي يمكن للأهالي أن يرتادوه فقد كانت أعداد كبيرة منهم ترتاد الحمامات بعد الظهر محققين لأنفسهم غايتين: واحدة اجتماعية والأخرى صحية. وكان «الروتين» المتبع في الاستحمام هو: حمّام حار، حمام فاتر ثم حمام بارد. وكان كل من هذه الحمامات في غرفة منفصلة فالحمام الحار في غرفة تسمى كلداريوم «Caldarium» والفاتر في غرفة تسمى تبيداريوم «Tapidarium» ثم يأتي الحمام الثالث وهو

البارد المسمى فريجيداريوم «Frigidarium» وفيه بركة للسباحة وأماكن للاستراحة يجلس فيها الخارجون من الحمامات الأخرى بعض الوقت قبل الخروج إلى الشارع. وكان المستحم في العادة يبدأ بالحمام البخاري المعروف باسم لكونكم «Laconicum» كما كان المستحمون يدهنون أجسامهم بزيت الزيتون بدلاً من الصابون. وكان الأثرياء منهم يحضرون عبيدهم معهم أو يستأجرون خدم الحمامات لتدليكهم وتجفيف الزيت عن أجسامهم.

وكان يتصل بالحمامات عدد من المراحيض العامة المعروفة باسم «فوريكا» «Forica» والتي لا تزال بقاياها قائمة في كل من لبدة وصبراته وقورينة وكان المواطنون عامة يستعملونها لقاء دفع رسوم ضئيلة على غرار ما هو معروف الآن في دورات المياه في أوروبا. ولما لم تكن المراحيض موجودة في المنازل، إلا في قليل من منازل الكبراء والأثرياء، فإن وجود المراحيض العامة كان ضرورة لا غنى عنها.

أما وسائل الترفيه الرئيسية فقد كانت: المسرح، المسرح المدرج وميدان سباق الخيل. وكان المسرح أشبه بقاعة الموسيقى من حيث أن النشاط داخله كان مقصوراً على التمثيل الإيمائي المصحوب بالموسيقى والأوركسترا. وكان الممثل الواحد يقوم بأدوار شخصيات الرواية جميعها إلا أنّه كان يغير قناعه بين دور وآخر. وكانت موضوعات هذه التمثيليات تؤخذ من الأساطير الإغريقية كما ان الممثل الإيمائي البارع كان يحظى بشهرة واسعة على غرار ما هو الحال في أيامنا بالنسبة لنجوم السينما والمسرح.

وبالنسبة للمسرح المدرج فقد وجد تصوير للنشاط الذي كان يتم عليه في رصيف من الفسيفساء عثر عليه في «فيلا داربوك عميرة» قرب زليطن وهو موجود حالياً في متحف السراي الحمراء بطرابلس. ويصور جانبان من هذه الفسيفساء عملية صيد الحيوانات البرية التي كانت تتم عادة في الصباح في حلبة تحول إلى أشبه ما يكون ببقعة مكشوفة في وسط غابة. ثم يظهر الصيادون وكلابهم وهم يجهزون على غزال وبقرة وحشية وحمار وحش وعدد من النعام، بينما يظهر دب وثور، ربطا ببعضهما وهما يقتتلان

حتى الموت. وإلى جانبهما منظر هذلي لأحد الأقزام وخنزيره الأليف. ومن بين المناظر الأخرى منظر إعدام المجرمين وأسرى الحرب بتقديمهم للوحوش المفترسة. وفي هذا المنظر نرى اثنين من هؤلاء المنكودي الحظ وقد شدا إلى أعمدة خشبية مثبتة إلى عربتي يد. وقد دفعت إحدى العربتين وظهر نمر يجهز على إحدى الضحيتين بينما ظهرت العربة الثانية يدفعها أحد حراس الحلبة نحو وحش آخر. وفي منظر آخر يبدو شخص منكود ثالث يجره أحد حراس الحلبة من شعره ليقذفه أمام أسد ضارٍ. وقد فسر أحد الكتاب مناظر الضحايا الثلاث بأنها ترمز لمن أعدموا من الجرامنتيين في أعقاب حملة فاليريوس فستوس «Valerius Festus».

وعلى الجوانب الأخرى من هذه الفسيفساء مناظر للمصارعين الذين أخليت لهم الحلبة بعد الظهر، وهم يظهرون مسلحين بأنواع مختلفة من الأسلحة التقليدية في عصرهم. وكانت العادة أن تجري المبارزة بين متصارعين مسلحين بأسلحة متغايرة. وفي هذا المشهد الذي تصوره الفسيفساء المذكورة تجري المصارعة على أنغام فرقة موسيقية تستخدم طبلاً وبوقاً وأرغناً. ويظهر أن عدداً من المصارعين قد انتهوا. وكان المصارع المغلوب يرفع ذراعه اليسرى إشارة لاستسلامه، وآنذاك ينظر الحكم إلى القاضي المترئس للمكان مسترشداً بقراره الذي كان كثيراً ما يعطي وفقاً لرغبة المشاهدين. فإذا رفع القاضي إبهامه الأيمن إلى أعلى كان معنى ذلك الإبقاء على حياة المصارع المغلوب، أما إذ أشار بإبهامه ذاك إلى أسفل فمعنى ذلك أن على المنتصر أن يجهز على خصمه المغلوب بضربة الرحمة. وقد تستمر المصارعة عدة أيام متتالية فقد اكتشف نقش يرجع إلى حوالي سنة 200 م. وهو يذكر أنن عرض مصارعة استمر خمسة أيام متتالية في صبراتة، ولكنه يضيف أن ذلك العرض كان أول عرض بهذا الطول يجري في صبراتة.

وفي الحديث عن ميدان سباق الخيل أو السيرك «Circus» نذكر أن لبدة هي الوحيدة بين المدن الثلاث التي كان بها ميدان سباق دائم مرصوف بالحجارة مع احتمال أن كلا من أويا وصبراته كان بها ميدان مشابه ولكن مفروش بالخشب. ولا تزال آثار ميدانين مشابهين قائمة في سيرين وطلميثة. وكان

السباق الشائع في تلك الأيام هو سباق العربات التي تجرها أربعة من الخيول. وكان يشترك في الدفعة الواحدة عدد من العربات أقصاه اثنتا عشرة عربة تجري عادة سبع دورات حول الميدان باتجاه يعاكس عقرب الساعة. وفي وسط ميدان السباق هذا كانت تشهر على حاملات مرتفعة إما سبع بيضات أو سبع نوافير ماء على شكل سمكة الدُّلفين أو الدُّخس «Dolphin». ومع نهاية كل دورة حول الملعب كانت تؤخذ بيضة أو تسكر نافورة لإعلام الجمهور بعدد الدورات التي انتهت وعدد الدورات الباقية. وكثيراً ما كانت الحوادث تقع أثناء السباق فتصطدم عربة بأُخرى فتحطمها وتتحطم هي عليها صدفة أو عمداً، وقد وجد مشهد يمثل هذه الحوادث في أحد القبور في قرقارش. ومّما كان يزيد في حماس المشاهدين للسباق أن الرهان كان مسموحاً به. ولا نخطيء إذا افترضنا أن الحال في لبدة كانت تشبه الحالة في روما والمدن الكبرى الأخرى من حيث أن المتسابقين كانوا يحملون ألواناً مميزة هي: الأحمر أو الأبيض أو الأزرق أو الأخضر. ومن حيث أن الجمهور المشاهد كان ينقسم في حماسه وتشجيعه تبعاً لتلك الألوان. وما ينطبق على لبدة ينطبق على أويا وصبراته وسيرين وطلميثة.

ولعل خير ما يمثل الحياة الاجتماعية في مدن منطقة طرابلس حوالي منتصف القرن الميلادي الثاني هو أبولوجيا أو اعتذار أبوليس «Apuleius». وقبل أن نسرد قصة الأبولوجيا نجد لزاماً علينا أن نعرف بأبوليس لأنه كان شخصية غريبة جديرة بالتصوير. ولد لوسيوس أبوليس في مدينة مدورا «Madaurs» على بعد ثمانين ميلاً إلى الجنوب الغربي من قرطاجة سنة 124 م. من أسرة ثرية عريقة النسب. وتلقى دراسته في مدورا ثم في قرطاجة فأثينا. وبدد الثروة الكبيرة التي ورثها عن اسرته في تنقلاته من مدينة لأخرى. تلك التنقلات التي كان خلالها ينتقل من دين لآخر وينظم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية وقد مارس السحر. وألف كتباً كثيرة في موضوعات مختلفة من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان. وألقى محاضرات في الفلسفة والدين في روما وغيرها من المدن. ولو قدر لأبوليس أن يبعث بعد وفاته لساءه أن يجد نفسه مشهوراً بين أبناء منطقته بسبب أقل أعماله

شأناً وهو كتابه المسمى «الحمار الذهبي»، وكان الأسم الأول لهذا الكتاب هو «Metamorphoseon Lebri XI» أي «أحد عشر كتاباً في التحويل» والكتاب عبارة عن توسع غريب في قصة يرويها لوسيوس البتراسي عن رجل أنقلب حماراً، ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات، والوصف، والحوادث المحشورة فيه حشراً، يتخللها السحر والرعب والفحش في القول، والحديث عن التقوى المرجأ. ويروي لوسيوس، بطل القصة، كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات، وألفى نفسه اينما حل في جو من السحر. ومما جاء في ذلك الكتاب: «وما كاد الليل ينقضي ويبدأ فجر يوم جديد حتى كان من حظي أن أستيقظ، وأن أقوم من فراشي وأنا نصف مذهول، راغب حقاً في أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة... والحق إني لم أكن أرى شيئاً وأعتقد أنه كما أراه في الواقع، بل إن كل شيء بدا لي أنه قد تحول إلى صورة أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة. وبلغ من قوة اعتقادي هذا أن ظننت أن الحجارة التي قد تعثر بها قدماي تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التي هي عليها، وأن الطيور التي سمعتها تغرد والأشجار والمياه الجارية، استحالت إلى هذا الرش والورق ومنابع الماء، من صور أخرى غير هذه الصور. وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك في مستقبل الأيام، وأن الجدران ستتكلم وتروي أخباراً عجيبة، وأني سأسمع من فوري وحياً من السماء ومن شعاع الشمس».

وعند هذا الحد كان لوسيوس قد أصبح مستعداً لأية مغامرة يريدها ولذلك فهو يدهن جسمه بمرهم سحري، وهو شديد الرغبة في أن يستحيل طائراً، ولكنه حين يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً. وتروي القصة بعدئذٍ ما يلقاه ذلك الحمار «الذي له إحساس الإنسان وإدراكه» من محن. وكان عزاؤه الوحيد «أُذني الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شيء ولو شديد البعد عني».

وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الآدمية إذا عثر على وردة وأكلها، وهي أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيء. ثم كره الحياة، فلجأ أولاً إلى الفلسفة، ثم إلى

الدين. وألف دعاء يشكر فيه «إيزيس» شكراً بينه وبين ابتهال المسيحيين إلى أم الرب شبه عجيب. ثم يحلق رأسه ويقبل في الطبقة الثالثة من أتباع «أيزيس» المبتدئين ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلماً يأمره فيه «أوزوريس» – أعظم الآلهة – بأن يعود إلى وطنه ويشتغل بالقانون.

وقدم أبوليوس في أحدى رحلاته إلى أويا من مدورا في طريقه إلى الإسكندرية ولكن المرض قعد به في أويا حيث كان يسكن صديقه وزميله في الدراسة في أثينا سيسينيوس بونتيانوس «Sicinius Pontianus» مع والدته الأرملة الثرية إميليا بودنتيلاّ (Emelia Pudentilla). وعندما سمع بونتيانوس بمرض أبوليس عرض عليه السكنى معه ومع والدته في منزلهما الواقع على البحر فقبل أبوليس ذلك العرض شاكراً. وكان بونتيانوس يهدف من وراء هذه الدعوة إلى إقناع صديقه أبوليس بالزواج من والدته إميليا حماية لثروتها من الوقوع في يد زوج غير مرغوب فيه. واحتفظ بونتيانوس باديء الأمر بخطته هذه سرا حتى حانت اللحظة المناسبة وذلك عندما دعي أبوليس لإلقاء محاضرة في باسيليكا أويا. وكانت محاضرته ناجحة وسعد مستمعوه بما تجلى فيها من فصاحة إلى حد أنهم بدأوا يتوسلون إليه أن يقيم في أويا وأن يقبل أن يصبح أحد أبنائها. وبهذه المناسبة تقدم بونتيانوس بخطته لصديقه ونجح في أقناعه بالبقاء في أويا وبالزواج من والدته. وبدأ زواجهما سعيداً ولكنه لم يلبث أن تعكر نتيجة المؤامرات التي بدأ أقارب إميليا يدبرونها لأن مطامعهم في ثروتها قد خابت بسبب هذا الزواج. ولذلك فقد شنوا حملة تشهير ضد أبوليس انتهت باتهامه رسمياً بأنه إنما حمل إميليا على الموافقة على الزواج منه بوساطة السحر. وبموجب تلك التهمة قدم أبوليس للمحاكمة في صبراته حيث وقف يدافع عن نفسه أمام رئيس المحكمة البروقنصل «كلوديوس مكسيموس» «Claudius Maximus» الذي كان صديقاً له. والأبولوجيا هي الخطبة التي ألقاها أبوليس في محكمة صبراته ففي هذه المناسبة، وتجلى ذكاؤه وبلاغته بشكل أدهش مستمعيه من أبناء الولاية ومكنه من الفوز بالبراءة. ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن رحل عن أويا مع زوجته إميليا إلى قرطاجة حيث قضّى بقية حياته يمارس صناعتي

الطب والمحاماة، وكتابة الرسائل، والخطب. ولكن معظم ما كتبه كان في الموضوعات العلمية والطبيعية. وقد أقامت له مدينته نصباً تذكارياً نقش عليه باللاتينية الكلمتان: «الفيلسوف الإفلاطوني».

وأبوليس هو الشخصية الأدبية اللامعة الوحيدة التي لها ذكر في منطقة طرابلس في هذه الفترة. ونحن لا نجد أثرا لتلك الفورة الفكرية التي تميزت بها إفريقية الرومانية بشكل عام والتي أدت إلى ظهور كتاب من مستوى رفيع مثل أبوليس نفسه وتيرتوليان (Tertullian) وأوغسطس (Augustine). وهذا يعني أنه بالرغم من وضوح الرومانية الشديدة في المظاهر الخارجية للحياة في المدن الثلاث إلا أننا نجد المحافظة الشديدة تسيطر على الحياة الفكرية كما أننا نجد هذه المنطقة فينيقية أكثر منها رومانية في مجال الأدب والدين وصحيح إن اللغتين واللاتينية طكانتا مستعملتين رسميا ولكن اللغة الفينيقية كانت أكثر شيوعا كما أنها كانت لغة التخاطب بين الناس. وبالرغم من إن اللغة الإغريقية كانت تحتل المرتبة الأولى كلغة للمفكرين والأدباء والمثقفين ثقافة عالية، إلا أننا نجد مبادئها الأساسية فقط تدرس في منطقة المدن الثلاثة. فإذا أراد أحد أبناء المنطقة أن يتابع تعليمه العالي كان عليه أن يطلبه في قرطاجة الرومانية أو في روما أو في أثينا. ومن الناحية الدينية أستمر أبناء منطقة المدن الثلاثة متمسكين بآلهتهم وطقوسهم الفينيقية وإن كانوا قد بدأوا يطلقون عليها أسماء رومانية فسموا ملكارت هيركوليس وأسموا أشمون أبولو وأسموا عشتار منيرفا وفينوس وهكذا. وظلت هذه الحالة سائدة حتى دخول المسيحية إلى هذه البلاد. فنحن نسمع عن وجود أسقف مسيحي في لبدة في نهاية القرن الميلادي الثاني كما نسمع عن وجود مركز معمداني في كل من أويا وصبراته وقت انعقاد مجمع قرطاجة سنة 256 م.

الزراعة والتجارة:

كان اقتصاد منطقة طرابلس خلال العهد الروماني يرتكز في الدرجة الأولى على تصدير زيت الزيتون. وبالرغم من أن زيت الزيتون الإفريقي كان

يعتبر ثقيلا بالنسبة لأغراض الطبخ إلا أن الطلب عليه في تزايد بسبب استعماله للتدليك في الحمامات ولأغراض الإضاءة. ولعلنا نستطيع أن نتصور النطاق الواسع الذي كانت زراعة شجرة الزيتون قد بلغته مع بدء العصر الروماني عندما نتذكر مقدار الغرامة السنوية الضخمة التي فرضها يوليوس قيصر على لبدة والتي كانت عبارة عن عشرة ملايين لتر من الزيت؛ فقد قدر ذوو الاختصاص أن تلك الكمية كانت تعادل إنتاج ما لا يقل عن مليون شجرة من الزيتون[61]. ولقد أدى وجود رؤوس أموال رومانية ضخمة في منطقة طرابلس في العصر الروماني إلى تشجيع زراعة شجرة الزيتون وتوسيع الرقعة المزروعة بها. فلما أهل القرن الميلادي الثاني كان جميع الجبل الغربي من ترهونة إلى البحر ومن حافة الجبل إلى وادي ترغلات مكسواً بمزارع الزيتون الكثيفة. ولا نكاد نشك في أن مزارع واسعة من الزيتون كانت تكسوا القسم الشرقي من سهل الجفارة خاصة حول أويا وصبراتة. ولقد تم التأكد كذلك من وجود مزارع للزيتون في منطقة الزنتان وفي مناطق مصراته الداخلية، وحول خليج سدرة. ونحن نعرف أن الإمبراطور هدريان شجع البدو على استغلال الأراضي الداخلية التي لم تكن قد شجرت حتى ذلك الوقت فكانوا يشجرونها على حسابهم الخاص مقابل تأمين ملكيتها لهم من ناحية وإعفائهم من الضرائب التي كانت تجبى عادة من أشجار الزيتون وكروم العنب من الناحية الأخرى. ولا بد أن هذا التشجيع أدى إلى ظهور إعداد جديدة من المزارع. أما على الساحل فإن المزارع التي كانت شائعة عي المزارع المتنوعة الإنتاج التي كانت تهدف إلى أن تكون مكتفية ذاتيا أو إلى أن تزود الأسواق بالمنتجات المختلفة.

وفي الوقت الذي نرى فيه إن الزراعة كانت تشكل المورد الرئيسي لثروة منطقة طرابلس في هذه الفترة فنحن نعلم أن تجارة القوافل عبر الصحراء لقيت تشجيعا كبيرا نظرا لاستتباب الأمن وانتشار شبكة الطرق الرومانية

61- أنظر أيضا ديورانت ، ول ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1959 . القاهرة ج3م3 ، ص31 ، حيث يقول : « وجد العرب حين قدموا إلى الشمال الإفريقي في القرن السابع الميلاد أن في وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون» .

المترامية الأطراف. ولذلك فقد نشطت القوافل العابرة للصحراء من أواسط إفريقيا ناقلة الفيلة والعاج والذهب والرقيق إلى صبراته وأويا ولبدة. وإذا تذكرنا أن عدد الحيوانات التي كانت تقتل في اليوم الواحد في المسرح المدرج في روما كان يصل إلى خمسة آلاف. استطعنا أن نكون فكرة عن أهمية المتاجرة في الحيوانات البرية كالفيلة والأسود والنمور التي كان لا بد لها أن تمر في أحد موانئ طرابلس، تلك الموانى التي كانت مدخلا للسلع المستوردة من وراء البحر لتسير في الاتجاه المعاكس أي إلى الدواخل. ولقد أثبتت الحفريات التي أجريت في مقابر جرما وجود مصابيح رومانية وأواني فخارية وزجاجية تتراوح تواريخها بين أواخر القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الرابع.

وفي المجال الصناعي لم تكشف الحفريات حتى الآن عن شيء ذي بال باستثناء بعض قطع الآنية الفخارية التي يرجع تاريخها إلى القرن الميلادي الرابع. وهي تدل على أن هذه الصناعة كانت متأخرة وتنتج للاستهلاك المحلي فقط. والصناعة المحلية الوحيدة التي ذاع صيتها في الخارج هي صناعة الجروم «Garum». وهو نوع من المشهيات كان يستحضر من السمك المملح؛ وقد اشتهرت لبدة بهذه الصناعة بشكل خاص.

عصر الانحطاط

بمقتل اسكندر سويرس سنة 230 م. انتهت أسرة سويرس وانتهى معها عهد الأباطرة الإفريقيين وغرقت الإمبراطورية الرومانية في فوضى عسكرية دامت نصف قرن وأوصلت الإمبراطورية إلى حافة الهاوية مما شجع الأعداء المتحفزين خارج حدودها على مهاجمتها. وكان أول ضحايا هذه الحرب الأهلية، التي تعاقب خلالها أكثر من عشرين إمبراطورا على عرش روما، هم أبناء الطبقة البرجوازية من الملاكين والتجار في مدن الولايات المختلفة؛ فقد أدت النفقات العسكرية الباهظة إلى التضخم المالي وبالتالي إلى فقدان النقد لمعظم قيمته الشرائية وركود الحركة التجارية. وارتفعت الضرائب ارتفاعا خياليا لسد حاجة الأباطرة العسكريين ولكن لما أصبحت النقود لا قيمة تذكر لها فان الضرائب صارت عينية. وزاد الحال سوءا أن تحصيل هذه الضرائب صار عملا إلزاميا لموظفي البلديات الذين أصبحوا مسؤولين شخصيا عن تحصيل ضرائب مدنهم ومناطقهم مما حول منصب رئيس البلدية «Decurion» من منصب شرف يعتز به صاحبه إلى عبء بغيض، ثقيل على كاهل من يشغله. ولم تسلم المدن الليبية الرومانية من هذا البلاء بل قاست منه مثلما قاسى غيرها من مدن الإمبراطورية واستمرت الحال تسير من سيء إلى أسوأ حتى عهد ديوقلتيان (285-305 م) فتصدى هذا الإمبراطور للمشكلة المستفحلة وحاول إصلاح الوضع المتدهور بإشراك ثلاثة آخرين معه في الحكم. ولكن الفوضى عادة فنشبت من جديد إثر استقالته سنة 305 م. ولم تستتب الأمور إلا في عهد الإمبراطور قسطنطين الذي واصل إصلاحات ديوقلتيان بكل عزيمة وجد حتى صار يصعب على المرء أن يعزو إصلاحاً معينا لأحدهما دون الآخر. وفي سنة 313 م. رأي قسطنطين أن حرب الدولة للديانة المسيحية وأتباعها إنما هي حرب خاسرة. فأصدر مرسوم ميلان المشهور الذي أعطى المسيحيين حرية العبادة الكاملة وتعهد بتأييد الدولة لهم. ولكن أمل قسطنطين خاب عندما وجد المسيحيين منشقين على أنفسهم ومختلفين فيما بينهم. ففي الشمال الإفريقي مثلا كان

المسيحيون مختلفين على الموقف الخاص بمعاملة المسيحيين الذين كانوا قد ارتدوا تحت الضغط والتهديد وسوء المعاملة التي كان يلقاها المسيحيون عامة قبل صدور مرسوم ميلان المذكور. ونشأت عن هذا الخلاف كنيستان أفريقيتان إحداهما كاثوليكية تأخذ بوجهة نظر كنيسة روما القائلة أن المسيحي المرتد يبقى مسيحيا اذا ندم على ارتداده. والأخرى دوناتية – نسبة لزعيمها دوناتس[62] (Donatus) -. وكانت تتخذ موقفا متشددا وتقول أن المسيحي المرتد لا يجوز اعتباره مسيحيا إلا إذا عمِّد من جديد. صحيح أن هذا الخلاف كان خلافاً دينياً في ظاهره ولكنه كان في باطنه وحقيقته قناعا يتستر وراءه الاتجاه الوطني بقدر ما كان نتيجة للاضطراب الاجتماعي والاقتصادي مما جعله يصبح مظهراً من مظاهر الحركة الوطنية وتعبيرا عن الشعور الوطني الذي بدأ يقاوم الكنيسة الكاثوليكية لارتباطها بروما والإمبراطور والعناصر الرومانية الحاكمة.

وعلى هذا الأساس فان الحركة الدوناتية ارتبطت باللغات المحلية فجاء هذا تعبيرا عن مناهضتها للكنيسة الكاثوليكية التي كانت مرتبطة باللغة اللاتينية لغة العنصر الحاكم. وكان من الطبيعية، والحالة هذه، أن تتحالف الدوناتية مع الثورة الثقافية لمناطق نوميديا وللطبقات الدنيا من سكان المدن بينما تحالفت الكاثوليكية مع الطبقات العليا التي كانت قد صبغت بالصبغة الرومانية من مثل كبار الملاكين والنبلاء من سكان المدن. ولما صارت الكاثوليكية دعامة للأباطرة والحكومة المركزية في إفريقية فان الكنيسة الكاثوليكية صارت بؤرة تتركز عليها الشكاوي الاجتماعية والسياسية. ومن الناحية الأخرى فقد لوحظت صلة رجال الدين الدوناتيين بثورات المزارعين التي هزت أسس النظام الزراعي في نوميديا في الأربعينات من القرن الميلادي الرابع، وهددت بأعمال مماثلة في كل أرجاء الشمال الأفريقي. والواقع أن هذه الحركة إنما قامت في جميع ولايات الإمبراطورية، باستثناء فرنسا، تعبيرا عن

62- كان دوناتس أسقف قرطاجة ومؤسس مذهب الدوناتية الذي ظهر سنة 311 م . وكان أتباع دوناتس يذهبون إلى أنهم هم وحدهم خلفاء الرسل وأنهم يمثلون الكنيسة الكاملة الحقيقية وأن عمادة وسيامة رجال الكنيسة التابعين لروما غير صحيحتين وقد حكم على هذا المذهب وأتباعه بالهرطقة.

ثورة الثقافات المحلية ورفضها للصبغة الإغريقو – رومانية مما مهد الطريق أمام الإسلام كبديل للإمبراطورية الرومانية[63].

ومع مضي السنوات كانت هذه الحركة الدوناتية تزداد تطرفا وعنفا وتجتذب لصفوفها الكثيرين من اللصوص وقطاع الطرق مما أدى بها في النهاية إلى الانحراف عن اتجاهها الوطني والتحول إلى أداة تخريب وتدمير مما ألحق أضرارا فادحة باقتصاديات البلاد وعمرانها. ولقد سبقت الإشارة إلى احتمال أن يكون الدوناتيون هم الذين حرقوا جرما وخربوها فقضوا بذلك على مملكة الجرامنتيين.

ولقد عجل في انحطاط منطقة المدن الثلاث وتقهرها إن القبائل الليبية المتلاحمة إجمالا مع الحركة الدوناتية اغتنمت الفرصة لتهاجم تلك المنطقة ابتداء من منتصف القرن الميلادي الرابع. ففي سنة 363 م. شن الأستوريون (Austurians) هجوما على منطقة لبدة انتقاما لثائر أستوري كانت سلطات لبدة قد قتلته فقتلوا كل من صادفوه في طريقهم وأحرقوا كل ما وصلت إليه أيديهم. ولم ينقذ لبدة نفسها إلا أسوارها التي كانت لها هيبة في نفوس المهاجمين أدت إلى رحيلهم عنها بعد حصار لم يتعد ثلاثة أيام. وراحت لبدة تستنجد بالإمبراطور دون جدوى ربما راحوا الأستوريون يكررون غاراتهم عليها ثانية وثالثة وفي كل مرة يدمرون ويخربون ويقتلون الناس، ويقطعون الشجر. وقد امتد حصارهم للبدة في غزوتهم الثالثة طيلة ثمانية أيام رحلة عنها بعدها[64].

ونتيجة لهذه العوامل مجتمعة أخذت منطقة المدن الثلاثة تتقهقر

63- The Journal of Roman Studies, Society for promotion of Roman Studies, article under the title: “Christianity and Local Culture in Late Roman Africa” by Peter Brown,. Vol . LVIII, Parts I & II, London, 1968, pp 85 – 95.

أنظر أيضا : ويللارد . جيمس . الصحراء الكبرى . مكتبة الفرجاني . طرابلس . الطبعة الأولى، بيروت 1967 . ص128 – 147 .

64- أثبتت الدراسات الاثرية أن الخراب الذي حاق بلبدة لم يكن كله من صنع الأستوريين، بل إن كثيرا منه كان بسبب الزلزال الشديد الذي أصاب جميع منطقة وسط وشرق حوض البحر الأبيض المتوسط سنة 365 م .

وتقفر إلى حد أنها كانت في منتهى الهزال عندما بدأ الغزو الوندالي. والفئة الوحيدة من أبناء هذه المنطقة، التي ظلت منتعشة خلال القرن الرابع والخامس للميلاد هي فئة أصحاب مزارع الحدود الذين ظلوا بعيدين عن الأحداث، في مزارعهم المتعمقة داخل البلاد يعيشون عيشة شبه مستقلة بعد انحسار السلطة الرومانية عنهم. وربما لا نخطئ إذا قلنا إنهم ضمنوا أمنهم وسلامتهم تجاه القبائل المغيرة بأن ضلعوا معها أو وقفوا منها موقف الحياد. وتدل آثار الكنائس التي وجدت في مناطقهم من مثل «كنيسة القصر اللوطي» على أن الكثيرين منهم تحولوا للديانة المسيحية في مطلع القرن الميلادي الخامس.

احتلال الوندال لمنطقة طرابلس

(من 439 – 834 م)

1- جنسريك 430 – 477 م.

2- هونريك 477 – 484 م.

3- جونتاموند 484 – 496 م.

4- ترانساموند 496 – 523 م.

5- هلداريك 523 – 530 م.

6- جليمر 530 – 534 م.

الوندال قبائل من أصل جرماني زحفوا من بلادهم بجوار بحر آزوف فعبروا بألمانيا ثم غالة «فرنسا» واستقروا في أسبانيا – حيث سميت الأندلس باسمهم: وندالوسية – ومن أسبانيا قدموا إلى الشمال الإفريقي سنة 429 م. بقضهم وقضيضهم فكان عددهم بما في ذلك النساء والأطفال ثمانين ألف بينهم عشرون ألف مقاتل. وقصة قدومهم إلى الشمال الأفريقي هي أن الكونت بونيفيس (Boniface) كان حاكما لولاية أفريقية سنة 429 م. وحدث أن اشتد سوء التفاهم بينه وبين الإمبراطورة بلاسيديا (Placidia) نتيجة لمؤامرات منافسة إيتيوس (Aestion). وتطور ذلك الخلاف حتى خلع الكونت بونيفيس طاعة روما ودعا الملك جنسريك (Genseric). ملك الوندال في أسبانيا للقدوم إلى افريقية ومساعدته. ولما كان جنسريك ينتظر مثل هذه الدعوة فإنه لباها فورا وخف لنجدة الكونت. وبعد نزول جنسريك في الشمال الإفريقي زال الخلاف بين الكونت بونيفيس والإمبراطورة بلاسيديا وحل بينهما الوئام فطلب الكونت من جنسريك الانسحاب من البلاد ولكن الأخير لم يكن ليقنع في حال من الأحوال بأن ينسحب من إفريقية مما دعا الكونت بونيفيس إلى الإقدام على محاولة طرده بالقوة؛ وعندما فشلت المحاولة وجد الكونت نفسه مرغما على مغادرة البلاد سنة 431 م. وحاول

الإمبراطور فالنتيان الثالث أن يروج لفكرة تبعية الوندال له من باب التشبث بمظاهر السلطة ولكن الحكم الروماني في الشمال الأفريقي كان في الواقع قد انتهى فعلا عندما استولى الوندال على قرطاجة سنة 439 م. ومنذ البداية شكل الوندال طبقه عسكرية حاكمة صغيرة وفرضوا أنفسهم على شعوب عربية في الشمال الأفريقي حيث راحوا ينظمون شؤونهم الذاتية على أساس الحكم شبه العسكري الذي كانوا قد جلبوه معهم. ولكنهم لم يحاولوا قط أن يغيروا النظام الإداري الروماني الذي كان سائدا بين شعوب المنطقة بل تركوا تلك الشعوب تحكم نفسها حكما ذاتيا على خير ما تهيأ لها. وكان الوندال أثناء تجوالهم قد اعتنقوا المذهب المسيحي الاسكندري المنسوب إلى آريوس (Arius) الإسكندري المتوفي سنة 336 م – وهو مذهب كان مناهضا لكنيسة روما ولهذا فقد حكم عليه بالهرطقة – ولذلك السبب فان الوندال كانوا أعداء ألداء للمذهب الكاثوليكي فراحوا يضطهدون الكاثوليك في الشمال الإفريقي ويصادرون ممتلكاتهم الدينية والخاصة وينفون رجال الدين الكاثوليك. ومن الناحية الأخرى فإنهم اعتبروا الدوناتيين حلفاء طبيعيين لهم ضد الكاثوليك بالرغم مما في مذهب الدوناتيين من الأصول الدينية الأرثوذكسية. وكانت الكنيسة الكاثوليكية في روما بعد سلسلة طويلة من الاجتماعات والمناقشات بينها وبين أتباع الكنيسة الدوناتية قد اعتبرت الدوناتيين هراطقة خارجين عن القانون سنة 411 م. وجردتهم من حقوقهم وممتلكاتهم بناء على ذلك الاعتبار. ولكن الوندال الآن أعادوا للدوناتيين كل ما كانوا فقدوه وعوضوهم عما كانوا خسروه. على حساب منافسيهم الكاثوليك المضطهدين.

وبالنسبة لمنطقة المدن الثلاثة فان الوندال لم يعلقوا عليها أهمية اقتصادية أو استراتيجية كبرى. وهم في الواقع لم يحتلوها فعلا إلا حوالي سنة 455 م. عندما جهزوا جيشا كان فيه كثير من النوميديين واستولوا على طرابلس وجزر البحر المتوسط ودخلوا إيطاليا واستولوا على مدينة روما نفسها واستباحوها مدة خمسة عشر يوما عادوا بعدها إلى قرطاجة ومعهم كثير من الأسرى والسبايا اللواتي كانت بينهن الإمبراطورة نفسها

وابنتاها. وحتى بعد هذا التاريخ فان احتلال الوندال لمنطقة المدن الثلاثة كان احتلال غير مباشر. ويجدر بنا في هذا الصدد أن نشير إلى أن الوندال لم يخلفوا لنا ما يدل على احتلالهم للبدة سوى عدد من قطع النقود وجدت في سوق المدينة. وفيما عدا إقامة حرس قليل العدد في لبدة فلا يبدوا أن الوندال بدلوا أية محاولة لإعادة تنظيم الدفاع عن هذه المنطقة بل بالعكس فإنهم قاموا بهدم أسوار لبدة وصبراتة وربما أويا أيضا تنفيذا لسياسة ملكهم جنسريك التي كانت تهدف إلى هدم جميع التحصينات للحيلولة دون استفادة القبائل المحلية منها في حالة قيامها بثورة على الحكم الوندالي. وحتى يتجنب جنسريك خطر قيام القبائل البربرية الشرسة بالثورة على حكمه أوجد لها متنفسا يمكنها من التعبير عن شراستها لمصلحتها ومصلحة الوندال وذلك بأن أشركها في حملات القرصنة التي كان يشنها على جزر البحر الأبيض المتوسط وساحله الأوروبي. وفي أعقاب كل حملة كانت الأسلاب والغنائم تفرغ في قرطاجة وتوزع تحت نظر الملك جنسريك وإشرافه المباشر. وقد أدت هذه السياسة تجاه القبائل الليبية إلى إراحة الوندال، ولو إلى حين، من شرها، وإلى جعلها في الوقت ذاته تابعة لجنسريك وخاضعة لأمره. ولكن هذه السياسة كانت ذات حدين فقد ظلت مفيدة للوندال ما دامت فرص القرصنة والسلب والنهب قائمة، ولكن عندما انتهت القرصنة الوندالية انعكست الآية وانقلبت تلك القبائل البدوية البربرية منذ موت جنسريك سنة 477 م. ترضي غرائزها البدوية العنيفة بالسلب والنهب والتخريب في داخل البلاد ذاتها مما أدى إلى انهيار النظام الروماني وإحلال الفوضى وأعمال العنف بدلا منه؛ وأدت تلك الفوضى بدورها إلى إحياء السكان الوطنيين للنظام البدوي القبلي الذي كانوا قد اعتادوا عليه قبل قدوم الرومان في المنطقة، فعاد ذلك النظام – الذي كان يلائم البيئتين الطبيعية والاجتماعية ويلائم العقلية البدوية – إلى أصله بمجرد اضمحلال النفوذ والنظام الرومانيين وحلت بذلك إفريقيا البربرية أي الليبية محل أفريقيا الرومانية. وكانت النتيجة الاقتصادية المحتومة هي تخريب مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية التي كان الرومان قد استصلحوها.

وزحف الصحراء على حساب العمران. ومسؤولية هذا الخراب وتلك النكبة الاقتصادية لا تقع على عاتق جنسريك وقومه وحدهم بل تقع على عاتق القبائل البدوية البربرية كذلك. والواقع إن جنسريك لم يوجه ضربته القاسية إلا لأفراد الاستقراطية الرومانية سواء كانوا من رجال الدين أو من غيرهم أما الفلاحون فانه لم يمسسهم هو وقومه بسوء لأنهم كانوا يرون فيهم ركيزة للازدهار الاقتصادي وبالتالي مصدرا ممتاز للدخل. ولكن جنسريك وقومه قصروا تجاه هؤلاء المزارعين في أمر جوهري هو أنهم لم يؤمنوا لهم الحماية الكافية من غارات القبائل البدوية وهجمات الدوناتيين والعناصر المتطرفة والمتحالفة معهم من مثل الدوارين وغيرهم. وإذن فان القضاء على الفلاحين والفلاحة وإحلال الصحراء محل المزارع والعمران إنما جاء نتيجة لغارات القبائل المحلية؛ تلك الغارات التي بلغت أوج عنفوانها في أيام الملك الوندالي الثالث والتي أدت إلى مقتل أعداد كبيرة من الفلاحين وهرب من استطاع الهرب منهم إلى أماكن أخرى يجدون فيها الأمن والطمأنينة.

ولقد أتضح ما كانت سياسة جنسريك في هدم التحصينات تنطوي عليه من حماقة عندما جرد ليو البيزنطي سنة 468 م. حملة ضد جنسريك للقضاء على حركة قراصنته التي كان إرهابها قد امتد إلى الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. إذ بالرغم من أن القوة الرئيسية من الأسطول البيزنطي قد حطمت أثناء مهاجمتها لقرطاجة إلا إن مفرزة صغيرة من ذلك الأسطول كانت قد وجهت بقيادة هراكليوس (Heraclius) ضد منطقة المدن الثلاثة تمكنت بسهولة من الاستيلاء على المدن الثلاثة لأن الوندال، كما تقدم، كانوا قد هدموا أسوارها وتحصيناتها. وقد طردت تلك القوة البيزنطينية الصغيرة الحرس الوندالي من المدن الثلاث وظلت تحكمها دونما معارضة مدة ثلاثة سنوات ثم انسحبت تلقائيا.

ظهور القبائل الهجانة:

نجحت سياسة جنسريك في استقطاب القبائل الليبية ومسالمتها للوندال طيلة حياة ذلك الملك. وما إن توفي جنسريك حتى بدأت القلاقل

والاضطـراب تـدب بين تلـك القبائل التي كانـت مع هذه المرحلـة قد أتقنت اسـتخدام الجمل في السلم والحرب مما زاد في سرعة حركتها ومقدرتها على المناورة وعلى مفاجأة العدو وضربه. ويبدوا إن أول من ساعد على تربية الجمل وانتشاره في الشمال الأفريقي هو الإمبراطور سبتيميوس سويرس, ابن لبدة لأنه رأى أن الجمل «سفينة الصحراء» كان ضروريا لاقتصاد منطقة طرابلس, تلـك المنطقة التـي كان الإمبراطور يحيطها بعنايتـه, والتي كان اقتصادها التجـاري يعتمد إلى حد كبير على قوافل الصحـراء التي كانت بمثابة همزة وصل بينهـا وبين غدامس وجرما وأواسـط أفريقيا. ولهذا فـان تربية الجمال كانت قد بلغت شـأوا بعيدا في منطقة طرابلس لدى اسـتيلاء الوندال على الشـمال الإفريقي. وأول ثورة خطيرة قامت بها القبائل الهجانة في منطقة المدن الثلاث واستخدمت فيها الجمل في القتال بنجاح كانت في عهد الوندال الرابع ترانسـاموند (Transamund). وكان يقود القبائل الليبية في هذه الثورة واحد من أذكى رؤسـائها وأنشـطهم اسـمه كاباون[65] «Cabaon», وكانـت هـذه الثورة عنيفـة إلى حد أن الونـدال اضطروا لإرسـال حملة من قرطاجـة لإخضاعها. ومما يلفت الانتباه فـي هذه الثورة ذلك الدور البارز الذي لعبتـه الجمال فيها والذي سـنبرزه بعد قليل. لقد علم كابـاون بأن الوندال كانوا في طريقهم إليه من قرطاجة فراح يسـتعد لمجابهتهم. ومن أجل ذلك فرض على أعوانه أشـد أنظمة التقشـف من مثل فصل الرجال عن النساء والتهديـد بإعدام من يخرج عن تلك التعليمات. وفي الوقت ذاته بعث أعدادا من عملائه السـريين إلى قرطاجة وأمرهم أن يقتفوا أثر الحملة الوندالية وأن يصلحوا أية أضرار تلحقها تلك الحملة بالكنائس الكاثوليكية وعند مرورها بهـا. ولم يكن عمل كاباون هذا صادرا عن إيمانه بالكنيسـة الكاثوليكية بل عـن نظرته المصلحية؛ فقد عـرف عنه أنه كان يقول إنه مـع جهله بالآلهة الـذي كان النصارى الكاثوليك يبعدونه إلا انه كان يرى أن ذلك الإله – إن كان قويا كما قيل عنه – فلابد أن ينتقم من الذين يتطاولون عليه أو ينالون منه, ولابد أن يدافع عن الذين يمجدونه ويقدسونه.

65- لعل بين هذا الاسم وقرية « كاباو» في جبل نفوسة شيئا من الصلة .

ويخبرنا المـؤرخ البيزنطي بروكبيـس (Procopius) أنـه عندما اقترب الونـدال أمر كاباون بجماله فأنيخت خلف بعضها البعض في اثنتي عشـر دائـرة مركزها واحد. ثم انه وضع في الفـراغ الداخلي حول مركز هذه الدوائر جميع الأمتعة والنسـاء والأطفال وأمر رجاله بأن يقفوا بين الجمال برماحهم الطويلة, وتروسـهم, وقسـيهم. وحيال هذه الكتيبة الصلبة لم يسـتطع فرسـان الوندال بسـيوفهم وحرابهم القصيرة وخيولهم أن يفعلوا شـيئا, خاصـة وأن الخيل نفرت مـن الجمال ولم تجرأ على الدنو منهـا بدرجة كافية. وهكذا وقع الوندال فريسـة للنبال الليبية التي راحت تنهال عليهم والرماح الطويلة التي كانت تنوشهم فوقع الكثير منهم صرعى وقتل الكثيرون وهم يحاولون الفرار وانتهت حملتهم بهزيمة مخزية لهم ونصر مؤزر لليبيين.

ومـا يؤخذ على بروكوبيس في سـرده لقصة هذه الثـورة الليبية هو انه لم يذكر اسـم القبيلـة الليبية التي قامت بها برئاسـة كاباون. والمرجح أن قبيلـة الهيلاجواز (Hilaguas) هي التي تزعمت الثورة وبدأتها ثم انضمت إليهـا أعـداد كبيرة من قبيلة لواته البربرية, التي كانت تنتشـر في منطقة طرابلـس. لمؤازرتها فـي وجه الحملـة الوندالية المنتظرة. وقـد تمكنت لواتة بين سـنة 527 م. وسـنة 533 م. مـن هزيمة الوندال مـرة ثانية في منطقة المدن الثلاثة. وفي هذه المرة قامت لواتة باسـتباحة لبدة وبنهبها ثم غادرتها مهجـورة خربة. وكان عجز الوندال عـن القضاء عن المقاومـة الليبية إيذاناً بقرب انتهاء عهدهم المظلم إن كان تميز بشـيء فإنما تميز بالعنف والقسوة, وبالتدمير والتخريب.